الصَّاحِبَةِ رَبِيعَة خاتُون ٥٦١/ ٦٤٣هـ = ١١٦٦/ ١٢٤٥م

تمهيد:

قبل الحديث عن ربيعة بنت أيوب[١] ٥٦١-٦٤٣هـ = ١١٦٦-١٢٤٥م، رأيت أن أمهد لذلك بتفسير كلمتي الصاحبة، وخاتون اللتين كانتا تلتصقان باسمها. أما فيما يتعلق بالكلمة الأولي فمعناها اللغوي الزوجة، وهو ما يتضح في قوله تعالي: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا}.[٢] كما يتضح من حديث طلحة الفياض ٢٨ ق.هـ- ٣٦هـ = ٥٩٦-٦٥٦م[٣] لزوجته سُعْدَى بِنْتُ عَوْفٍ الْمُرِّيَّةُ[٤] حينما قال لها: وَلَنِعْمَ الصَّاحِبَةُ أَنْتِ حينما دخل دخل عليها ورأته مهموما، فسألته عن السبب فأخبرها بكثرة ما لديه من مال فأشارت عليه بأن يقسمه في قومه.[٥]

---

(١) نجم الدين أيوب: هُوَ الْأَمِير نجم الدّين أَيُّوب بن شاذي، وَكَانَ كَرِيمًا رحِيما عطوفا حَلِيمًا وبابه مزدحم الْوُفُود، كَانَ سَبَب وَفَاته أن شب بِهِ فرسه بِالْقَاهِرَةِ عِنْد بَاب النَّصْر يَوْم الِاثْنَيْنِ الثَّامِن عشر من ذِي الْحجَّة وَحمل إِلَى منزله وعاش ثَمَانِيَة أَيَّام ثمَّ توفّي فِي يَوْم الثُّلَاثَاء السَّابِع وَالْعِشْرين من ذِي الْحجَّة سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م، وَكَانَ وَلَده صَلَاح الدّين غَائِبا يغزو الكرك والشوبك ، فَدفن إِلَى جَانب قبر أَخِيه أَسد الدّين فِي بَيت فِي الدَّار السُّلْطَانِيَّة ثمَّ نقلا بعد سِنِين إِلَى الْمَدِينَة الشَّرِيفَة النَّبَوِيَّة على ساكنها أفضل الصَّلَاة والسّلَام، وَلما عَاد صَلَاح الدّين من غزاته بلغه قبل وُصُوله إِلَى مصر وَفَاة أَبِيه نجم الدّين فشقّ ذَلِك عَلَيْهِ حَيْثُ لم يحضر وَفَاته. أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل): عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ٢/ ٢٤٨ - ٢٤٩، تحقيق: إبراهيم الزيبق، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٢) سورة الجن (آية ٣)، أحمد مختار عبد الحميد عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١٢٦٩، الناشر: عالم الكتب، ط ١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨ م؛ سعدي أبو حبيب: القاموس الفقهي لغة واصطلاحا ١/ ٢٠٧، دار الفكر، دمشق، سورية، ط ٢، ١٩٨٨م؛ إبراهيم مصطفى وآخرين : المعجم الوسيط ١/ ٥٠٧ ، الناشر: دار الدعوة.

(٣) طلحة بن عبيد الله: هو طلحة بْن عبيد اللَّه بْن عثمان، وأمه الصعبة بنت عَبْد اللَّهِ بْن مالك الحضرمية، يعرف بطلحة الخير، وطلحة الفياض. وهو من السابقين الأولين إِلَى الإسلام، دعاه أَبُو بكر الصديق إِلَى الإسلام، فأخذه ودخل به عَلَى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما أسلم هو وَأَبُو بكر، أخذهما نوفل بْن خويلد بْن العدوية فشدهما في حبل واحد، ولم يمنعهما بنو تيم، وكان نوفل أشد قريش، فلذلك كان أَبُو بكر، وطلحة، يسميان القرينين. كان سبب قتل طلحة أن مروان بْن الحكم رماه بسهم في ركبته، فجعلوا إذا أمسكوا فم الجرح انتفخت رجله، وإذا تركه جرى، فقال: دعوه فإنما هو سهم أرسله اللَّه تعالى، فمات منه، وقال مروان: لا أطلب بثأري بعد اليوم، والتفت إِلَى أبان بْن عثمان، فقال: قد كفيتك بعض قتلة أبيك. وكان ذلك في موقعة الجمل لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وكان عمره ستين سنة، وقيل: اثنتان وستون سنة، وقيل: أربع وستون سنة. ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد): أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/ ٨٤ ، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(٤) سعدي بنت عوف: هي سُعْدَى بنتُ عَوْفِ بنِ خَارِجةَ بنِ سِنَانَ، امرأَةُ طَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللهِ ، أنجب منها عيسى ويحيى، روت عن زوجها، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وروي عنها ابنها يحيى وغيره. ابن مندة (عبد الرحمن بن محمد): المستَخرجُ من كُتب النَّاس للتَّذكرة والمستطرف من أحوال الرِّجال للمعرفة ٢/ ٥١٦، تحقيق: عامر حسن صبري التَّميميُّ ، وزارة العدل والشئون الإسلامية البحرين، إدارة الشئون الدينية؛ الذهبي (محمد بن أحمد): الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ٢/ ٥١٠، تحقيق: محمد عوامة أحمد محمد نمر الخطيب، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علوم القرآن، جدة، ط ١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م؛ ابن حجر (أحمد بن علي): تقريب التهذيب ١/ ٧٤٨، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٥) الخطابي (حمد بن محمد): غريب الحديث ٢/ ٢١٨، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر، طبعة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

كذلك فسر بعضهم: سُبحانَ اللهِ، أن المراد به هو تَنْزِيه الله من الصاحبة وَالْولد وتبرئته من السوء.[١] وَقِيلَ: تَنْزِيهُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ كُلِّ مَا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَن يُوصَفَ.[٢]

وذكر المطرزي: إن كلمة الصَّاحِبَة مشتقة من الفعل صحب، والصَّاحِبَةُ: تَأْنِيثُ الصَّاحِبِ وَجَمْعُهَا الصَّوَاحِبُ، وَمِنْهَا حَدِيثُ أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٩ ق.هـ/ ٥٨هـ = ٦١٣/ ٦٧٨م أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ فِي مَرَضِهِ: "مُرُوا أَبَا بَكْرٍ، فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ"، فَقَالَتْ عَائِشَةُ لِحَفْصَةَ ١٨ ق هـ/ ٤٥ هـ = ٦٠٤/ ٦٦٥م: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ، فَإِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ، فَقَالَ: " مُرُوهُ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ "، قَالَ: فَرَدَّتْ عَلَيْهِ مِرَارًا، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: "مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ"، فَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: "دَعِينِي، فَإِنَّكُنَّ أَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، لِيَؤُمَّ أَبُو بَكْرٍ النَّاسَ"[٣] وَمَنْ رَوَى صَوَاحِبَاتٍ فَقَدْ قَاسَهَا عَلَى جِمَالَاتٍ وَرِجَالَاتٍ وَفِي ذَلِكَ قَلِيلٌ أي غير شائع.[٤]

وأشار ابن منظور إلي أن هذه الكلمة وهي الصاحبة جمعها صواحب، وصواحبات. فيقول: "وَقَالُوا فِي النساءِ: هنَّ صواحِبُ يُوسُفَ. وحكي الْفَارِسِيُّ عَنْ أَبي الْحَسَنِ: هُنَّ صَوَاحِبَاتُ يُوسُفَ، جَمَعُوا صَواحِبَ جَمْعَ السَّلَامَةِ".[٥] ويقول الفيومي: "وَالصَّاحِبَةُ تَأْنِيثُ الصَّاحِبِ وَجَمْعُهَا صَوَاحِبُ وَرُبَّمَا أُنِّثَ الْجَمْعُ فَقِيلَ صَوَاحِبَاتٌ".[٦] ويقول بعضهم: بعضهم: "صاحِبة مفرد: جمعها صاحِبات وصَواحِبُ، وجمع الجمع صَوَاحِبَات. ومؤنَّث صاحِب: "صاحبة – هُنّ صواحبات يوسف – وصواحب يُوسُف: يقال للنِّساء عند شكايتهن وذمِّ أخلاقهنّ".[٧]

أما فيما يتعلق بمعني كلمة خاتون: فمعناها سيدة، ومصداق ذلك ما أشار إليه القاضي عبد النبي بن عبد الرسول من أن الرسول صلي الله عليه وسلم عندما علم بمولد الإمام الحسين بن علي ٤-٦١هـ = ٦٢٥-٦٨٠م ابتهج وسر وَذهب إِلَى منزل سيدة الْجنَّة (خاتون الْجنَّة) وَحمل الإِمَام الْحُسَيْن رَضِي الله تَعَالَى عَنهُ فِي حضنه وَأذن فِي أُذُنه الْمُبَارَكَة وَسَمَاهُ الْحُسَيْن.[٨] ويفسر بعضهم معني هذه الكلمة بقوله: "خاتون مفرد: جمعها خواتينُ: وهي امرأة شريفة الأصل، عالية المقام، كان يُلقّب بها نساء الملوك".[٩]

---

(١) ابن سيده (علي بن إسماعيل): المحكم والمحيط الأعظم ٣/ ٢١١، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ٢٠٠٠م.

(٢) ابن منظور (محمد بن مكرم): لسان العرب ٢/ ٤٧١، الناشر: دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ.

(٣) ابن حنبل (أحمد بن محمد): مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤١/ ١٩١ المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.

(٤) المغرب في ترتيب المعرب ١/ ٢٦٣، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: دون طبعة ودون تاريخ.

(٥) لسان العرب ١/ ٥٢٠.

(٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ١/ ٣٣٣، المكتبة العلمية، بيروت.

(٧) أحمد مختار عبد الحميد عمر: المرجع السابق ٢/ ١٢٦٩.

(٨) دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ٤/ ٥١، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، لبنان، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(٩) أحمد مختار عبد الحميد عمر: المرجع نفسه ١/ ٦٠٣، إبراهيم مصطفي وآخرين: المعجم الوسيط ١/ ٢١٣.

نسب ربيعة خاتون

هي ربيعة بنت الْأَمِير نجم الدّين أَيُّوب بن شاذي وَلَا يعرف فِي نسب الأخير أَكثر من وَالِده شاذي، وكَانَ تَقِيّ الدّين عمر ٥٨٧هـ/ ١١٩١م[١] يزِيد فَيَقُول: شاذي بن مَرْوَان، وهناك من يَقُول شاذي بن مَرْوَان بن يَعْقُوب. وَقد ادّعى إسماعيل بن طغتكين ٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م[٢] لما ملك الْيمن أَنهم من بني مَرْوَان بن مُحَمَّد ٧٢-١٣٢هـ/ ٦٩٢-٦٩٢- ٧٣٢م الْجَعْدِي الْمَعْرُوف بالحمار آخر خلفاء بني أُميَّة، ولكن هناك إجماع من آل أَيُّوب أَن هَذَا كذب وَأَن جَمِيع آل أَيُّوب لا يعرفون جدًّا فَوق شاذي، وَدَلِيل صِحَة ذَلِك أن أبا شامة عثر على كتاب وقف الرّباط النجمي بِدِمَشْق وَلم يزدْ فِيهِ على نجم الدّين أَبُو سعيد أَيُّوب بن شاذي العادلي.[٣] أما فيما يتعلق بأخوات ربيعة خاتون، فهي فهي شقيقة كل من ست الشام زمرد خاتون بنت نجم الدين أيوب ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م[٤] ومصداق ذلك قول النويري وهو يتحدث عن ست الشام: "أخت السلطان الملك الناصر صلاح الدين، والملك العادل. وهى شقيقة الملك المعظم: شمس الدولة تورانشاه، وسيف الإسلام ابني أيوب. وكانت سيدة الخواتين. وكانت ست الشام، وأختها ربيعة خاتون، محرما على نيف وثلاثين ملكا وسلطانا." [٥]

---

(١) تقي الدين عمر: هو عمر بن شاهنشاه بن أيّوب صَاحب حماة، ابْن أخي السُّلْطَان صلاح الدين، كَانَ شجاعاً مقداماً منصوراً فِي الحروب مؤيّداً فِي الوقائع، ومواقفه مَشْهُورَة مَعَ الفرنج، وناب عَن عمّه صَلَاح الدّين بالديار المصريَّة أثناء غيابه عَنْهَا، ثمَّ استدعاه إِلَيْهِ إِلَى الشَّام ورتَّب مَكَانَهُ الْعَزِيز عُثْمَان وَمَعَهُ الْعَادِل، فشقّ ذَلِك على تقيّ الدّين وعزم على دُخُول بِلَاد الغرب ليفتحها، ففبَّح أصحابُه عَلَيْهِ ذَلِك فامتثل قَول عمّه صَلَاح الدّين وَحضر إِلَى خدمته، وَخرج السُّلْطَان والتقاه بمرج الصُفَّر واجتمعا هُنَاكَ وَفرح بِهِ وَأَعْطَاهُ حماة ، فتوجَّه إِلَيْهَا وتوجَّه إِلَى قلعة مَنازْكِرْدَ من نواحي خِلاط، ليأخذها فحاصرها مدَّة، وَتُوفِّي عَلَيْهَا يَوْم الْجُمُعَة تَاسِع عشر شهر رَمَضَان سنة سبع وَثَمَانِينَ وَخمْس مائَة، وَقيل توفّي بَين خِلاط وماردين وَنقل إِلَى حماة ودُفن بهَا ورُتِّب مَكَانَهُ وَلَده الْمَنْصُور أَبُو الْمَعَالِي مُحَمَّد. الصفدي (خليل بن أيبك): الوافي بالوفيات ٢٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) إسماعيل بن طغتكين: هُوَ أَبُو الْفِدَاء إسماعيل بن طغتكين بن أَيُّوب بن شاذي ابْن أخي السُّلْطَان صَلَاح الدّين ملك الْيمن بعد أَبِيه، وَادّعى أَنه من بني أُميَّة وعزم على إِعَادَة الْخلَافَة من بني هَاشم إِلَى بني أُميَّة، وَله فِي ذَلِك أشعار كَثِيرَة، وتلقب بِالْإِمَامِ الْهَادِي بِنور الله الْمعز لدين الله أَمِير الْمُؤمنِينَ ومدحه كثير من الشُّعَرَاء بذلك وزينوا لَهُ فعله وَمَا هُوَ فِيهِ. أبو شامة: عيون الروضتين ٢/ ٢٥٠-٢٥١.

(٣) عيون الروضتين ٢/ ٢٥٠.

(٤) ستّ الشام بنت نجم الدّين أيّوب أخت السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، كانت سيّدة الخواتين في زمنها، كانت كثيرة البرّ والصدقات، كانت تعمل في دارها الأشربة والمعاجين والعقاقير كلّ سنة بألوف الدنانير وتفرّقها على الناس، وكان بابها ملجأ للقاصدين؛ وهى أمّ حسام الدّين محمد بن عمر بن لاچين، وصاحبة الأوقاف والأربطة بدمشق وغيرها. ابن تغري بردي (يوسف بن عبد الله): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦/ ٢٤٦، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

(٥) نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٩/ ٩٦-٩٩، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

وأشار الصفدي إلي ذلك فقال: "ولربيعة عدَّة محارم سلاطين وَهِي أُخْت سِتّ الشَّام وَأدْركت من محارمها من الْمُلُوك من إخوتها وَأَوْلَادهمْ وَأَوْلَاد أَوْلَادهم أَكثر من خمسين رجلا فَإِن إربل[١] كَانَت لزَوجهَا، والموصل[٢] لأَوْلَاد بنتهَا، وخلاط[٣] وَتلك النَّاحِيَة لِابْنِ أَخِيهَا الأوحد بن العادل ٦٠٩هـ = ١٢١٢م،[٤] وبلاد الجزيرة الفراتية[٥] لابْن أَخِيهَا الأشرف موسي ٥٧٨-٦٣٥هـ = ١١٨٢-١٢٣٧م[٦] وبلاد الشأم لأَوْلَاد إخوتها، والديار المصرية والحجاز واليمن لأخوتها وَأَوْلَادهمْ".[٧]

---

(١) إربل: بلد معروف قُربَ الموصل بالعراق. الحازمي (محمد بن موسى): الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة ١/ ٦٨، المحقق: حمد بن محمد الجاسر ، الناشر: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٥ هـ.

(٢) الموصل: هي مدينة بالعراق تقع علي الشاطئ الغربي لنهر دجلة، صحيحة التربة والهواء. الإصطخري (إبراهيم بن محمد): المسالك والممالك ص ٧٣، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م.

(٣) خِلاطُ: بلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة، وهي من فتوح عياض بن غنم، سار من الجزيرة إليها فصالحه بطريقها على الجزية ومال يؤدّيه ورجع عياض إلى الجزيرة، وهي قصبة أرمينية الوسطى، وببردها في الشتاء يضرب المثل. ياقوت الحموي (ياقوت بن عبد الله): معجم البلدان ٢/ ٣٨٠- ٣٨١، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ م

(٤) الْملك الأوحد نجم الدّين أَيُّوب صَاحب خلاط، وَكَانَ قَصِيرا للْغَايَة، شهما مقداما، سفاكا للدماء، مَاتَ فِي حَيَاة أَبِيه الملك العادل. المقريزي (أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٣١٠، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥) الْجَزِيرَةِ الْفُرَاتِيَّةِ: هِيَ الْجُزْءُ الشَّمَالِيُّ مِنْ الْأَرْضِ الَّتِي يَكْتَنِفُهَا نَهْرَا دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ، أَيْ بَيْنَ مُنْخَفَضِ الزَّرْقَاءِ إلَى الْمَوْصِلِ وتلعفر - فِي الْعِرَاقِ - إلَى أَبِي كَمَالِ وَدَيْرِ الزَّوْرِ وَالرَّقَّةِ، فِي سُورِيَّةَ. وَهِيَ مِنْ أَخْصَبِ أَرْضِ الْعَرَبِ، وَمِنْ أَهَمِّ أَعْلَامِهَا «جَبَلُ سِنْجَارَ» يَرْتَفِعُ ١٤٥٣ مِتْرًا، وَجَبَلُ عَبْدِ الْعَزِيزِ (٩٢٠) مِتْرًا. وَمِنْ أَعْظَمِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَسْكُنُ الْجَزِيرَةَ الْيَوْمَ: قَبِيلَةُ طَيِّئٍ، و قَبِيلَةُ عَنَزَةَ. عاتق بن غيث: معجم الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ ١/ ٨٢، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٦) الْأَشْرَفُ مُوسَى بْنُ الْعَادِلِ بَانِي دَارِ الْحَدِيثِ الْأَشْرَفِيَّةِ وَجَامِعِ التَّوْبَةِ وَجَامِعِ جَرَّاحٍ، تُوُفِّيَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ رَابِعِ الْمُحَرَّمِ سنة ٦٣٥هـ، بِالْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ، وَدُفِنَ بِهَا حَتَّى نَجِزَتْ تُرْبَتُهُ الَّتِي بُنِيَتْ لَهُ شَمَالِيَّ الْكَلَّاسَةِ، ثُمَّ حُوِّلَ إلَيْهَا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فِي جُمَادَى الْأُولَى. ابن كثير (إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية ١٣/ ١٤٦-١٤٧، دار الفكر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

(٧) الوافي بالوفيات ١٤/ ٦٧، الذهبي (محمد بن أحمد): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام١٦٣/٤٧، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م؛ ابن كثير: المصدر السابق ١٣/ ١٢٨.

ومن أشقاء ربيعة خاتون أيضا الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠م[١] وكان أسَن من صـــلاح الدين، فكان يحترمه ويرجحه على نفسه.[٢] والملك سيف الإسلام طغتكين بن أيوب صَاحِبُ اليَمَنِ ٥٩٣ هـ/ ١١٩٧م،[٣] أما عن بقية إخوتها غير الأشقاء فهم: الملك شاهنشاه بن أيوب ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م[٤] صاحب صاحب بعلبك وأكبر إخوته،[٥] وَتَاج المُلُوْك بُوْرِي بن أيوب أخو صلاح الدين الأصغر ٥٥٦-٥٧٩هـ = ١١٦١-١١٨٣م الَّذِي قُتل عَلَى حلب سنة ٥٧٩هـ أثناء مشاركته في حصارها.[٦] والسلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ٥٣٢-٥٨٩هـ = ١١٣٧-١١٩٣م، والملك العادل سيف الدين بن نجم الدين أيوب ٥٤٠-٦١٥هـ/ ١١٤٥-١٢١٨م[٧].

---

(١) تورانشاه: صَاحِبُ اليَمَنِ المَلِكُ المُعَظَّمُ شَمْسُ الدَّوْلَةِ تُوْرَانْشَاه بنُ أَيُّوْبَ أَخُو السُّلْطَانِ صَلاَحِ الدِّيْنِ، هُوَ أَسَنُّ مِنَ السُّلْطَانِ، فَكَانَ يَحترِمُهُ. جهّزه فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّيْنَ إِلَى بلاَد النُّوْبَة، فَرَجَعَ بغَنَائِم كَثِيْرَة، ثُمَّ بعثَه عَلَى اليَمَنِ، فَظَفِرَ بِعَبْدِ النَّبِيّ المتغلِّب عَلَيْهَا، وَقتله، وَاسْتَوْلَى عَلَى مُعْظَم اليَمَن. ثُمَّ إِنَّهُ ملَّ مِنْ سكنَى اليَمَن، وَلَمْ تُوَافقه، فَاستَنَاب عَلَيْهَا، وَقَدِمَ فِي آخِرِ سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِيْنَ، فولاه صلاح الدين نِيَابَة السّلطنَة بِدِمَشْقَ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى مِصْرَ فِي عَام أَرْبَعَة وَسَبْعِيْنَ، وَاتفق مَوْته بِالإِسْكَنْدَرِيَّة فِي صَفَرٍ، سَنَة سِتٍّ وَسَبْعِيْنَ، فَنقل فِي تَابوت إِلَى دِمَشْقَ، وَدُفِنَ بِالمَدْرَسَة الشَّامِيّة عِنْد أُخْته شَقِيقَته ست الشام. الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٣- ٥٤، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام ١٢/ ٥٨٠، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب، ط ١، ٢٠٠٣م.

(٣) طغتكين: هو سَيْفُ الْإِسْلَامِ طُغْتِكِينُ بْنُ أَيُّوبَ، أَخُو صَلَاحِ الدِّينِ وَهُوَ صَاحِبُ الْيَمَنِ. وَكَانَ شَدِيدَ السِّيرَةِ، مُضَيِّقًا عَلَى رَعِيَّتِهِ، يَشْتَرِي يَشْتَرِي أَمْوَالَ التُّجَّارِ لِنَفْسِهِ وَيَبِيعُهَا كَيْفَ شَاءَ. وَأَرَادَ مُلْكَ مَكَّةَ فَأَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ إِلَى أَخِيهِ صَلَاحِ الدِّينِ فِي الْمَعْنَى، فَمَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَجَمَعَ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَا يُحْصَى، حَتَّى أَنَّهُ مِنْ كَثْرَتِهِ كَانَ يَسْبِكُ الذَّهَبَ وَيَجْعَلُهُ كَالطَّاحُونِ وَيَدَّخِرُهُ. ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد): الكامل في التاريخ ١٠/ ١٤٨، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٤) شاهنشاه بن أيوب: هو الأمير نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان، أخو السلطان صلاح الدين؛ وهو والد عز الدين فروخ شاه والد الملك الأمجد صاحب بعلبك، ووالد الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماة. وقتل شاهنشاه المذكور في الواقعة التي اجتمع فيها الفرنج، وتقدموا إلى باب دمشق، وعزموا على قصد بلاد المسلمين قاطبة، ونصره الله سبحانه وتعالى عليهم، وكان قتله في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى. ابن خلكان (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢/ ٤٥٢، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م.

(٥) ابن خلكان: المصدر السابق ٢/ ٤٥٢.

(٦) تَاجُ الْمُلُوكِ بُورِيٌّ، أَخُو صَلَاحِ الدِّينِ الْأَصْغَرُ، وَكَانَ فَارِسًا شُجَاعًا، كَرِيمًا حَلِيمًا، جَامِعًا لِخِصَالِ الْخَيْرِ، وَمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، طُعِنَ فِي فِي رُكْبَتِهِ فَانْفَكَّتْ، فَمَاتَ مِنْهَا بَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ الصُّلْحُ بَيْنَ عِمَادِ الدِّينِ وَصَلَاحِ الدِّينِ عَلَى تَسْلِيمِ حَلَبَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا صَلَاحُ الدِّينِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ أَمْرُ الصُّلْحِ حَضَرَ صَلَاحُ الدِّينِ عِنْدَ أَخِيهِ يَعُودُهُ، وَقَالَ لَهُ: هَذِهِ حَلَبُ قَدْ أَخَذْنَاهَا، وَهِيَ لَكَ، فَقَالَ: ذَلِكَ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ. وَوَاللَّهِ لَقَدْ أَخَذْتَهَا غَالِيَةً حَيْثُ تَفْقِدُ مِثْلِي. فَبَكَى صَلَاحُ الدِّينِ وَأَبْكَى. ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٧٤.

(٧) الذهبي: تاريخ الإسلام ١٦٢/٤٧، الصفدي: المصدر السابق ١٤/ ٤٦٧؛ اليافعي (عبد الله بن أسعد): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان٤/ ٨٤، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م؛ ابن كثير: المصدر السابق ١٣/١٧٠؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق ٦/ ٣٥٣.

هذا وقد كانت ربيعة خاتون محل احترام وتقدير بالغين من إخوتها سواء الأشقاء أو غير الأشقاء، ومن أولادهم، وأولاد أولادهم، الذين دأبوا علي التردد عليها، وزيارتها للاطمئنان عليها. وهو ما أشار إليه بعضهم بقوله: "وكان يحترمها الملوك من أولاد إخوتها وأولادهم ويزورونها في دارها".(١)

أزواج ربيعة خاتون

قام صلاح الدين الأيوبي أخو ربيعة خاتون بتزويجها من الأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر ٥٨١هـ/ ١١٨٥م وذلك لما تميز به من الخصال الحسنة، فضلا عن أن صلاح الدين كان قد تزوج من أخته لأبيه العفيفة صاحبة المعروف والصدقات الخَاتُونَ عِصْمَةِ الدِّينِ بِنْتِ مُعِينِ الدِّينِ أَنُرَ ٥٨١هـ/ ١١٨٥م(٢) في أواخر صفر سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٧م بعد وفاة زوجها الملك الصالح الشهيد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ٥١١-٥٦٩ هـ = ١١١٨-١١٧٤م، فأراد أن يحدث نوعا من تبادل المصاهرة بهذا البيت الكبير.(٣) ويقول العماد مبينا سبب زواج ربيعة خاتون من الأمير مسعود:" وفيهَا (سنة ٥٨١هـ) فِي جُمَادَى الْآخِرَة توفّي أَخُو الخاتون (زوجة صلاح الدين) الْمَذْكُورَة سعد الدّين مَسْعُود بن أنر، وَلَقَد كَانَ من الأكارم الأكابر وَمن ذَوي المآثر والمفاخر، وَمَا رَأَيْت أحسن مِنْهُ خلقا، وأزكى عرقا ،وَلم يزل فِي الدولتين النورية والصلاحية أَمِيرا مقدما، وعظيما مكرما، ولسفور فضائله، ووفور فواضله، وجد شهامته، وحد صرامته، رغب السُّلْطَان وَهُوَ زوج أُخْته أَن يكون هُوَ أَيْضا زوج أُخْته".(٤)

---

(١) النعيمي (عبد القادر بن محمد): الدارس في تاريخ المدارس ٣٩١/١، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية.

(٢) عصمة الدين: عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أنر زوجة السلطان صلاح الدين ، تزوّجها بعد زوجها الملك العادل نور الدين الشهيد. وَوَلِيَ تَزْوِيجَهَا مِنْهُ أَخُوهَا الْأَمِيرُ سَعْدُ الدِّينِ مَسْعُودُ بْنُ أُنَرَ، وَحَضَرَ الْقَاضِي شرف الدين ابْنُ أَبِي عَصْرُونَ الْعَقْدَ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْعُدُولِ، وَبَاتَ النَّاصِرُ عِنْدَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَالَّتِي بَعْدَهَا، ثُمَّ سَافَرَ إِلَى مِصْرَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ مِنَ الدُّخُولِ بِهَا. كانت من أعفّ الناس وأكرمهنّ، كان لها صدقات كثيرة وبرّ عظيم؛ بنت بدمشق مدرسة للحنفيّة فى حجر الذهب، ورباطا للصوفيّة، وبنت تربة بقاسيون على نهر بردى، وبها دفنت؛ وأوقفت على هذه الأماكن أوقافا كثيرة. وماتت فى رجب ٥٨١هـ، فبلغ صلاح الدين موتها وهو مريض بحرّان فتزايد مرضه لموتها ولحزنه عليها. أبو شامة: المصدر السابق ٢/ ٤٣٢، ابن تغري بردي: المصدر السابق ٦/ ٩٩؛ النعيمي: المصدر السابق ١/ ٣٨٩.

(٣) الملك المنصور (محمد بن عمر): مضمار الحقائق وسر الخلائق ١/ ٢٢٧، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة.

(٤) أبو شامة: عيون الروضتين ٣/ ٢٤٥، النويري: المصدر السابق ٢٩/ ٣١٨.

هذا بالإضافة إلي أن الأمير سعد الدين مسعود كان في منزلة الأب لصلاح الدين بعد أبيه ، كما تمتعت أخته الخاتون عصمة الدين بمنزلة كبيرة لدي صلاح الدين، ولذا حرص علي إتمام هذا الزواج، فيقول الذهبي: "سعْد الدين مَسْعُود ولد الأمير مقدَّم الجيوش معين الدّين أُنُر.[١] كَانَ من أكابر الأمراء النُّوريَّة والصّلاحيَّة لأبُوَّته[٢] ولمكان أخته الخاتون زَوْجَة نور الدّين وصلاح الدين. توفّي فِي هَذِهِ السّنة (٥٨١هـ) بعد أخته بيسير. وكان زوج ربيعة خاتون أخت السّلطان صلاح الدّين".[٣] ويقول ابن كثير[٤] أيضا: "الأمير الكبير سعد الدين مسعود، كان من كبار الأمراء أَيَّامَ نُورِ الدِّينِ وَصَلَاحِ الدِّينِ، وَهُوَ أَخُو السِّتِّ خَاتُونَ (عصمة الدِّينِ) وَحِينَ تَزَوَّجَهَا صَلَاحُ الدِّينِ زَوَّجَهُ بأخته السِّتَّ رَبِيعَةَ خَاتُونَ بِنْتَ أَيُّوبَ ... وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِدِمَشْقَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سنة ٥٨١هـ مِنْ جُرْحٍ أَصَابَهُ وهو في حصار ميافارقين".[٥]

أما عن مدة هذا الزواج فيرجح أن صلاح الدين زوج أخته ربيعة خاتون من سعد الدين مسعود في السنة نفسها التي تزوج هو فيها من عصمة الدين خاتون، وهي سنة ٥٧٢هـ، وقد استمر هذا الزواج حتى وفاة سعد الدين مسعود سنة ٥٨١هـ. وإن كان قد أشار بعضهم إلي أن صلاح الدين هو من بادر بتزويج أخته أولا من الأمير سعد الدين مسعود، ثم تزوج أخته بعد ذلك. فيقول ابن كثير: "زَوَّجَهَا أَخُوهَا أَوَّلًا بِالْأَمِيرِ سَعْدِ الدِّينِ مسعود بن معين الدين وَتَزَوَّجَ هُوَ بِأُخْتِهِ عِصْمَةَ الدِّينِ خَاتُونَ، الَّتِي كَانَتْ زَوْجَةَ الْمَلِكِ نُورِ الدِّينِ".[٦]

---

(١) معين الدين أنر مقدّم الجيوش بدمشق، ومملوك الأتابك طغتكين. كان مدبّر دولة أولاد أستاذه طغتكين. وكان عاقلاً سائساً مدبّراً حسن الديانة ظاهر الشجاعة، جليل القدر، عالي الهمّة، كثير الصدقات. توفي في ربيع الآخر سنة ٥٤٤هـ بسبب إسرافه في الأكل، فأصيب بإسهال شديد وتولد مَعَه مرض فِي الكبد فأوجب الْحَال عوده إِلَى دمشق فِي محفة لمداواته فوصل وَقضى نحبه فِي لَيْلَة الثَّالِث وَالْعِشْرين من ربيع الآخر، وَدفن فِي إيوَان الدَّار الأتابكية التي كَانَ يسكنهَا، ثمَّ نقل بعد ذَلِك إِلَى الْمدرسَة الَّتِي عمرها. وقبره فِي قبَّة بمقابر العوينة شمَالي دَار بطيخ، واسْمه مَكْتُوب على بَابهَا فَلَعَلَّهُ نقل من ثمَّ إِلَيْهَا. ابن القلانسي (حمزة بن أسد): تاريخ دمشق ١/ ٤٧٥-٤٧٦، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م؛ أبو شامة: المصدر السابق ١/ ٢٢٢؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر ٢/ ٤٦٦-٤٦٧، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) أبوته: أي كُنتُ لَه أَباً. الزمخشري (محمود بن عمرو): أساس البلاغة ١/ ٣٣٠، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

(٣) تاريخ الإسلام ٤١/ ١٠٥.

(٤) البداية والنهاية ٣١٧/١٢، ابن تغري بردي: المصدر السابق ٦ /٩٩؛ النعيمي: المصدر السابق ١/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٥) ميافارقين: بلد معروف من أرض أرمينية، بين حدود الجزيرة وحدود أرمينية، وبعض الناس يعدها من أرمينية، وبعضهم يعدها من بلاد الجزيرة، وهو في شرقي دجلة على مرحلتين منها، وبينها وبين آمد خمسة فراسخ. الحِميرى (محمد بن عبد الله): الروض المعطار في خبر الأقطار ١/ ٥٦٧، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، دار السراج، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

(٦) البداية والنهاية ١٣/ ٠١٧٠.

وبعد وفاة زوجها سعد الدين مسعود سنة ٥٨١هـ تزوجت ربيعة خاتون من صاحب مدينة إربل الملك مظفر الدين[١] أبو سعيد كوكبري (أي الذئب الأزرق) ٥٤٩-٦٣٠هـ = ١١٥٤-١٢٣٣م بن زين الدين علي كوجك،[٢] وكان الملك مظفر الدين قد اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين، وحظي عنده، وتمكن منه، وأقطعه مدينة الرها[٣] في سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، ثم أعطاه بعد ذلك حران[٤] وسميساط،[٥] وزوجه أخته الست ربيعة خاتون بنت أيوب، وكانت قبله زوجة سعد الدين مسعود بن معين الدين. وشهد مظفر الدين مع صلاح الدين مواقف كثيرة وأبان فيها عن نجدة وقوة نفس وعزيمة، وثبت في مواضع لم يثبت فيها غيره، وشهرة ذلك تغني عن الإطالة فيه، ولو لم يكن له إلا موقعة حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨م لكفته، فإنه وقف هو وتقي الدين صاحب حماة -المقدم ذكره- وانكسر العسكر بأسره، ثم لما سمعوا بوقوفهما تراجعوا حتى كانت النصرة للمسلمين، وفتح الله سبحانه عليهم. ثم لما كان السلطان صلاح الدين منازلا عكا[٦] بعد استيلاء الفرنج عليها وردت عليه ملوك الشرق تتجده وتخدمه، وكان في جملتهم زين

---

(١) كوكبري: هو السُّلْطَانُ الدِّيِّنُ، المَلِك المُعَظَّمُ، مُظَفَّر الدِّيْنِ، أَبُو سَعِيْدٍ كُوْكْبُرِي بن عَلِيٍّ بن بكتكين بن مُحَمَّدٍ التُّرْكْمَانِيّ، صَاحِب إِرْبِل، وَابْن صَاحِبهَا وَمُعَمِّرِهَا المَلِكِ زَيْنِ الدِّيْنِ عَلِيٍّ كُوجَكَ. فَلَمَّا مَاتَ سنة ٥٦٣هـ، تَملك إِرْبِل ابْنه هَذَا وَهُوَ مُرَاهِق، وَصَارَ أَتَابَكه مُجَاهِد الدِّيْنِ قَيْمَاز، فتآمر عَلَيْهِ، وَكَتَبَ مَحضراً بِأَنَّهُ لاَ يَصلُح لِلمُلْك، وَقبض عَلَيْهِ، وَمَلَّكَ أَخَاهُ زَيْن الدِّيْنِ يُوْسُف، فتوجّه مُظَفَّر الدِّيْنِ إِلَى بَغْدَادَ، فلم يعيروه اهتماما، فَقَدِمَ المَوْصِلَ عَلَى صَاحِبِهَا سَيْفِ الدِّيْنِ غَازِي بنِ مَوْدُوْدٍ، فَأَقطعه حَرَّان، فَبقِي بِهَا مُدَيْدَة، ثُمَّ اتَّصل بِخدمَة السُّلْطَان صَلاَح الدِّيْنِ، وَغَزَا مَعَهُ، وَتَمَكَّنَ مِنْهُ، وَأَحَبّه، وَزَاده الرُّهَا. وَأَبَان مُظَفَّر الدِّيْنِ عَنْ شجَاعَة يَوْم حِطِّين، فَوَفَدَ أَخُوْهُ صَاحِب إِرْبِل عَلَى صَلاَح الدِّيْنِ نَجدَة، فتمرض، وَمَاتَ عَلَى عَكَّا، فَأَعْطَى السُّلْطَان مُظَفَّر الدِّيْنِ إِرْبِل وشهر زور، وَاسْترد مِنْهُ حَرَّان وَالرُّهَا. وَكَانَ مُحِبّاً لِلصَّدقَة، لَهُ كُلّ يَوْم قناطير خُبْز يُفرّقهَا، وَيَكسو فِي العَامِ خلقاً وَيُعْطِيهُم أموالا، وبني أَرْبَع خَوَانك للزمني والأضراء، وَكَانَ يَأْتِيهِم كُلّ اثْنَيْنِ وَخَمِيْس، وَيَسْأَل كُلّ وَاحِد عَنْ حَالِه، وَيَتفقَّده، وَيُبَاسِطه، وَيَمزح مَعَهُ. وبني دَاراً لِلنِّسَاءِ، وَدَاراً لِلأَيتَام، وَدَاراً لِلْقطَاءِ، وَرتَّبَ بِهَا المَرَاضِعَ. توفي فِي١٩ شعْبَان سنة ٦٣٠هـ عَن أَربع وَثَمَانِينَ سنة، فتسلم إربل من بعده نواب الْخَلِيفَة وَصَارَت مُضَافَة إِلَى مملكة بَغْدَاد. الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٣٤-٣٣٥، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٦٥، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م؛ المقريزي: السلوك ١/ ٣٦٨.

(٢) زين الدين علي: هو صاحب إربل الأمير زين الدّين أبي الحَسَن عليّ كوجك بن بكتكين بن محمد التّركمانيّ. وكوجك: لفظ أعجميّ معناه لطيف القدّ. كَانَ شجاعا، شهما، ملك بلادا كثيرة ثمّ فرّقها على أولاد الملك قطب الدّين مودود صاحب المَوْصِل. وكان موصوفا بالقوّة المفرطة، وطال عُمره، وحجَّ هُوَ والأمير أسد الدّين شيركوه بن شاذي في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ومات في آخر سَنَة ثلاثٍ وستين بإربل، ولَهُ مدرسة بالمَوْصِل وأوقاف. الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٤٠٢.

(٣) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. ياقوت: معجم البلدان ٣/ ١٠٦.

(٤) حرّان: هي قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم. وكانت منازل الصابئة وهم الحرانيون. كامل الغزي (كامل بن حسين): نهر الذهب في تاريخ حلب ١/ ٤٢٧، دار القلم، حلب، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

(٥) سميساط: مدينة قديمة من مدن الأناضول تقع غربي نهر الفرات جنوبي ملطية وشرقي مرعش عنده ينعطف نهر الفرات إلي الغرب. ولها قلعة في شق منها يسكن الأرمن .. ياقوت: المصدر السابق ٣/ ٢٥٨، ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٦) عكا: مدينة بفلسطين تقع علي ساحل البحر المتوسط. محمد بن محمد حسن شُرَّاب: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ١/ ١٩٩، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

زين الدين يوسف[١] أخو مظفر الدين، وهو يومئذ صاحب إربل، فأقام قليلا ثم مرض، وتوفي في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة بالناصرة – وهي قرية بالقرب من عكا – فلما توفي التمس مظفر الدين من السلطان أن يتنازل عن حران والرها وسميساط، ويعوضه إربل، فأجابه إلى ذلك وضم إليه شهرزور،[٢] فتوجه إليها ودخل إربل في ذي الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة، وملكها.[٣]

هذا وقد كان مظفر الدين يحكم إربل قبل ذلك بعد أن توفي والده الأمير زين الدِّين أبي الحَسَن عليّ كوجك التّركمانيّ.

في أواخر سَنَة ٥٦٣هـ بإربل. فلمّا مات ولي إربل مظفّر الدِّين –هذا– وهُوَ ابن أربع عشرة سَنَة. وكان أتابكَه مجاهد الدِّين قايماز ٥٥٩–٥٩٥هـ/ ١١٦٤–١١٩٩م،[٤] ثمّ تعصَّب عليه مجاهدُ الدِّين وكتب محضرا أنَّه لا يَصلح يَصلح واعتقلَه، وشاور الخليفة في أمره. وأقام موضعه أخاه زين الدِّين يوسف بن عليّ، وطردَ مظفّر الدِّين عن البلاد فتوجّه إلى بغداد، فلم يلتفت إليه ، فقَدِمَ المَوْصِل، وبها الملكُ سيفُ الدِّين غازي بن مودود،[٥] فأقطعه حَرَّان،

---

(١) زين الدين يوسف: كَانَ زَيْنُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ زَيْنِ الدِّينِ عَلِيٌّ، صَاحِبُ إِرْبِلَ، قَدْ حَضَرَ عِنْدَ صَلَاحِ الدِّينِ بِعَسَاكِرِهِ أَثناء حصاره لعكا. فَمَرِضَ وَمَاتَ ١٨ رَمَضَانَ سنة ٥٨٦هـ. وَذَكَرَ الْعِمَادُ الْكَاتِبُ فِي كِتَابِهِ "الْبَرْقُ الشَّامِيُّ" كَمَا قَالَ: "جِئْنَا إِلَى مُظَفَّرِ الدِّينِ نُعَزِّيهِ بِأَخِيهِ، وَظَنَنَّا بِهِ الْحُزْنَ، وَلَيْسَ لَهُ أَخٌ غَيْرُهُ، وَلَا وَلَدٌ يَشْغَلُهُ عَنْهُ، فَإِذَا هُوَ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنِ الْعَزَاءِ، مُهْتَمٌّ بِالِاحْتِيَاطِ عَلَى مَا خَلَّفَهُ. وَهُوَ جَالِسٌ فِي خِيَامِ أَخِيهِ الْمُتَوَفَّى، وَقَدْ قَبَضَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أُمَرَائِهِ وَاعْتَقَلَهُمْ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ يَطْلُبُ مِنْهُ إِرْبِلَ لِيَنْزِلَ عَنْ حَرَّانَ وَالرُّهَا، فَأَقْطَعَهُ إِيَّاهَا، وَأَضَافَ إِلَيْهَا شَهْرَزُورَ وَأَعْمَالَهَا، وَدَرْبَنْدَ قَرَابِلِيٍّ، وَبَنِي قَفْجَاقْ. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٨٧– ٨٨.

(٢) شهرزور (*sharazur*): أو حلبجة الجديدة: بلدة كردية عراقية تابعة لمحافظة السليمانية وهى تبعد ٣٥ كم جنوب شرق مركز محافظة السليمانية. شيدها زور بن الضحّاك، ومعنى شهر بالفارسية المدينة، وأهل هذه النواحي كلهم أكراد. ياقوت: المصدر نفسه ٣/ ٣٧٥، ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/١١٤–١١٥.

(٤) مجاهد الدين قايماز: تُوُفِّيَ فِي رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سنة ٥٩٥هـ بِقَلْعَةِ الْمَوْصِلِ، وَهُوَ الْحَاكِمُ فِي دَوْلَةِ نُورِ الدِّينِ، وَالْمَرْجُوعُ إِلَيْهِ فِيهَا، وَكَانَ ابْتِدَاءُ وِلَايَتِهِ قَلْعَةَ الْمَوْصِلِ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَوَلِيَ إِرْبِلَ سَنَةَ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، فَلَمَّا مَاتَ زَيْنُ الدِّينِ عَلَاءُ كُوجَكْ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ بَقِيَ هُوَ الْحَاكِمُ فِيهَا، وَمَعَهُ مَنْ يَخْتَارُهُ مِنْ أَوْلَادِ زَيْنِ الدِّينِ لَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ مَعَهُ حُكْمٌ. وَكَانَ عَاقِلًا، دَيِّنًا، خَيِّرًا، فَاضِلًا، يَعْرِفُ الْفِقْهَ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَيَحْفَظُ مِنَ التَّارِيخِ وَالْأَشْعَارِ وَالْحِكَايَاتِ شَيْئًا كَثِيرًا. وَكَانَ كَثِيرَ الصَّوْمِ، يَصُومُ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ نَحْوَ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ، وَلَهُ أَوْرَادٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ كُلَّ لَيْلَةٍ، وَيُكْثِرُ الصَّدَقَةَ، وَكَانَ لَهُ فِرَاسَةٌ حَسَنَةٌ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّ الصَّدَقَةَ، وَيَعْرِفُ الْفُقَرَاءَ الْمُسْتَحِقِّينَ وَيَبَرُّهُمْ، وَبَنَى عِدَّةَ جَوَامِعَ مِنْهَا الْجَامِعُ الَّذِي بِظَاهِرِ الْمَوْصِلِ بِبَابِ الْجِسْرِ، وَبَنَى الرُّبُطَ وَالْمَدَارِسَ وَالْخَانَاتِ فِي الطُّرُقِ، وَلَهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْءٌ كَثِيرٌ –رَحِمَهُ اللَّهُ– فَلَقَدْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الدُّنْيَا. ابن الأثير: المصدر السابق ١٠/ ١٦٧– ١٦٨.

(٥) سيف الدين غازي: هو سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن أقسنقر، صاحب الموصل، والديار الجزرية، توفي في ثالث صفر سنة ٥٧٦هـ بمرض السل، وطال به، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر، وكان حسن الصورة مليح الشباب، تام القامة أبيض اللون، عاقلاً عادلاً، عفيفاً شديد الغيرة، لا يدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغاراً، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان عفيفاً عن أموال الرعية، مع شح كان فيه، وحين حضره الموت، أوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه بن غازي، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره، وكان مدير الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز. ابن شداد (يوسف بن رافع): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي) تحقيق:

فأقام بها مُدَّةً، ثمّ اتّصل بخدمة السُّلطان صلاح الدِّين، وحظي عنده، وتمكّن منه، وزاد إقطاعه، وزوَّجه بأخته الست ربيعةَ خاتون.[١] وبعد أن تزوجت ربيعة خاتون بالملك مظفَّر الدّين بقيت بإربل دهرا معه. فلمّا مات قدِمت إلى دمشق.[٢]

أما عن تاريخ زواج مظفر الدين من ربيعة خاتون فقد أشار ابن كثير إلي أن ذلك تم خلال مقاتلة صلاح الدين الفرنج أمام أسوار مدينة عكا ومن المعروف أن ذلك كان في سنة ٥٨٦هـ فنراه يقول: "كان قد زَوَّجَهُ إِيَّاهَا أَخُوهَا صَلَاحُ الدِّينِ، لَمَّا كَانَ مَعَهُ عَلَى عَكَّا".[٣] ويشير ابن كثير في موضع آخر إلي مدة هذا الزواج وأنه استمر فترة طويلة، فيقول: "ثُمَّ لَمَّا مَاتَ الْأَمِيرُ سَعْدُ الدِّينِ زَوَّجَهَا (صلاح الدين) مِنَ الْمَلِكِ مُظَفَّرِ الدِّينِ صَاحِبِ إِرْبِلَ، فَأَقَامَتْ عِنْدَهُ بِإِرْبِلَ أَزْيَدَ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّى مات، ثم قدمت دمشق فسكنت بدار الْعَقِيقِيِّ[٤] حَتَّى كَانَتْ وَفَاتُهَا.[٥]

ولقد كان مظفر الدين زوج ربيعة خاتون يتمتع بسيرة ذاتية حافلة ،فلقد كان له في فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحدا فعل في ذلك ما فعله، لم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة، كان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرقها على المحتاجين في عدة مواضع من البلد، حيث يجتمع في كل موضع خلق كثير يفرق عليهم في أول النهار، وكان يجتمع عند الدار خلق كثير فيدخلهم إليه ويدفع لكل واحد كسوة على قدر الفصل من الشتاء والصيف أو غير ذلك، ومع الكسوة شيء من الذهب، وكان قد بني أربع خانقاهات[٦] للزمني والعميان وملأها من هذين الصنفين، وقرر لهم ما يحتاجون إليه كل يوم، وكان يأتيهم بنفسه في كل يوم اثنين وخميس ويدخل عليهم، ويدخل إلى كل واحد في بيته، ويسأله عن حاله ويتفقده بشيء من النفقة، وينتقل إلى الآخر، وهكذا حتى يدور على جميعهم، وهو يياسطهم ويمزح معهم ويجبر قلوبهم، وبني دارا للنساء الأرامل، ودارا للصغار الأيتام، ودارا للملاقيط رتب بهم جماعة من المراضع، وكل مولود يلتقط يحمل إليهن فيرضعنه، وأجرى على أهل كل دار ما يحتاجون إليه في كل يوم، وكان يدخل إليها في كل وقت ويتفقد أحوالهم ويعطيهم النفقات زيادة على المقرر لهم، وكان يدخل إلى البيمارستان ويقف على كل مريض ويسأله عن مبيته وكيفية حاله وما يشتهيه؟ وكانت له دار مضيف يدخل إليها

الدكتور جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٤م؛ أبو الفداء (إسماعيل بن علي): المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٢ المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى.

(١) ابن خلكان: المصدر السابق ٤/ ١١٣-١١٤، الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٤٠٢- ٤٠٣.

(٢) الذهبي: المصدر السابق ٤٧/ ١٦٢، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٧/ ٦٤.

(٣) البداية والنهاية ١٣/ ١٣٧.

(٤) دار العقيقي: كانت هذه الدار تجاه المدرسة العادلية تعرفُ بدارِ الشريف العقيقي بناها أحمد بن الحسين بن أحمد بن علي بن محمد العقيقي وكان من وجوه أشراف دمشق. ابن عساكر (علي بن الحسن): تاريخ دمشق ٥٠/ ٣٣٦ ها ١، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م؛ ياقوت: الخزل والدأل بين الدور والدارات والديرة ١/ ٦، د. ت.

(٥) البداية والنهاية ١٣/ ١٧٠؛ ابن تغري بردي (يوسف بن عبد الله): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦/ ٩٩ و ٣٥٣، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٩٠-٣٩١.

(٦) خانقاهات: أَصْلُ الخانَقاه: بُقْعَةٌ يَسْكُنُها أَهْلُ الصَّلاةِ والخَيْرِ، والصُّوفِيَّةُ، فارِسِيَّةٌ أَصْلُها خانه كاه، وَقد حَدَثَتْ فِي الْإِسْلَام فِي حُدودِ الأَرْبَعِمائة. مرتضى الزَّبيدي (محمّد بن محمّد): تاج العروس من جواهر القاموس ٢٥/ ٢٧٠ و ٣٦/ ٣٧٤، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

كل قادم على البلد من فقيه أو فقير أو غيرهما، وعلى الجملة فما كان يمنع منها كل من قصد الدخول إليها، وإذا عزم الإنسان على السفر أعطوه نفقة على ما يليق بمثله، وبني مدرسة رتب فيها فقهاء الفريقين من الشافعية والحنفية، وكان كل وقت يأتيها بنفسه، ويعمل السماط[١] بها ويبيت بها، وبني للصوفية خانقاهين فيهما خلق كثير من المقيمين والواردين، ويجتمع في أيام المواسم فيهما من الخلق ما يعجب الإنسان من كثرتهم، ولهما أوقاف كثيرة تقوم بجميع ما يحتاج إليه ذلك الخلق، ولا بد عند سفر كل واحد من نفقة يأخذها، وكان ينزل بنفسه إليهم. وكان يسير في كل سنة جماعة من أمنائه إلى بلاد الساحل ومعهم جملة مستكثرة من الناس يفتك بها أسرى المسلمين من أيدي الكفار، فإذا وصلوا إليه أعطى كل واحد شيئا، وإن لم يصلوا فالأمناء يعطونهم بوصية منه في ذلك. وكان يقيم في كل سنة سبيلا للحاج، ويسير معه جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه في الطريق، ويسير صحبته أمينا معه خمسة أو ستة آلاف دينار ينفقها بالحرمين على المحتاجين وأرباب الرواتب، وله بمكة حرسها الله تعالى، آثار جميلة وبعضها باق إلى الآن، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف: وغرم عليه أموالا كثيرة، وعمر بالجبل مصانع للماء، فإن الحجاج كانوا يتضررون من عدم الماء، وبني له تربة أيضا هناك.[٢]

وأما احتفاله بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به، لكن نذكر طرفا منه: وهو أن أهل البلاد كانوا قد سمعوا بحسن اعتقاده فيه، فكان في كل سنة يصل إليه من البلاد القريبة من إربل – مثل بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين وبلاد العجم وتلك النواحي – خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، ولا يزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب كل قبة أربع أو خمس طبقات، ويعمل مقدار عشرين قبة وأكثر، منها قبة له، والباقي للأمراء وأعيان دولته لكل واحد قبة، فإذا كان أول صفر زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة، وقعد في كل قبة جماعة من المغنيين ومن أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي، وتبطل معايش الناس في تلك المدة، وما يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم، وكانت القباب منصوبة من باب القلعة إلى باب الخانقاه المجاورة للميدان، فكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر ويقف على كل قبة إلى آخرها، ويسمع غناءهم، ويتفرج على خيالاتهم وما يفعلونه في القباب، وكان يحتفل بالمولد تارة في ثامن الشهر، وتارة أخري في الثاني عشر، لأجل الاختلاف الذي فيه، فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم شيئا كثيرا زائدا عن الوصف وزفها بجميع ما عنده من الطبول والمغاني والملاهي حتى يأتي بها إلى الميدان، ثم يشرعون في نحرها، وينصبون القدور ويطبخون الألوان المختلفة، فإذا كانت ليلة المولد بعد أن يصلي المغرب في القلعة ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيء كثير، وفي جملتها شمعتان أو أربع من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل، ومن ورائها رجل يسندها وهي مربوطة على ظهر البغل حتى ينتهي إلى الخانقاه، فإذا كانت صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه

---

(١) السماط: معناه الأصلي صف الطعام. ويطلق على قطعة من الجلد تمدّ على الأرض وتوضع عليها صحون الطعام. دُوزِي (رينهارت بيتر آن): تكملة المعاجم العربية ٦/ ١٤٦، ترجمة: محمَّد سَليم النعَيمي، الناشر: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى، من ١٩٧٩–٢٠٠٠م.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١١٦–١١٧.

على أيدي الصوفية، على يد كل شخص منهم بقجة،[١] وهم متتابعون كل واحد وراء الآخر، فينزل من ذلك شيء كثير، ثم ينزل إلى الخانقاه وتجتمع الأعيان والرؤساء وطائفة كبيرة من بياض الناس،[٢] وينصب كرسياً للوعاظ، وقد نصب لمظفر الدين برجاًمن خشب له شبابيك إلى الموضع الذي فيه الناس والكرسي، وشبابيك أخر للبرج أيضا إلى الميدان، وهو ميدان كبير في غاية الاتساع، ويجتمع فيه الجند ويعرضهم ذلك النهار، وهو تارة ينظر إلى عرض الجند وتارة إلى الناس والوعاظ، ولا يزال كذلك حتى يفرغ الجند من عرضهم، فعند ذلك يقدم السماط في الميدان للصعاليك،[٣] ويكون سماطا عاما فيه من الطعام والخبز شيء كثير لا يحد ولا يوصف، ويمد سماطا ثانيا في الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسي، وفي مدة العرض ووعظ الوعاظ يطلب واحدا بعد الآخر من الأعيان والرؤساء والوافدين لأجل هذا الموسم من الفقهاء والوعاظ والقراء والشعراء، ويخلع على كل واحد ثم يعود إلى مكانه، فإذا تكامل ذلك كله، حضروا السماط وحملوا منه لمن يقع التعيين على الحمل إلى داره، ولا يزالون على ذلك إلى العصر أو بعدها، ثم يبيت تلك الليلة هناك، وهكذا يعمل في كل سنة، فإذا فرغوا من هذا الموسم تجهز كل إنسان للعودة إلى بلده، فيدفع لكل شخص شيئا من النفقة، وقد وصل الحافظ أبو الخطاب ابن دحية ٥٤٤-٦٣٣هـ/

---

(١) بُقْجَة: بقجة وبُقْشَة (تركية) وجمعها بُقج وبُقَش. هي قطعة مربعة من قماش مبطن تختلف ألوانه، تلفف بها الملابس لحفظها، وقد تكون من القماش أو من الورق كالتي تتخذ في الدواوين مثلاً. دُوزِي: المرجع السابق ١/ ٣٩٠؛ أحمد مختار عبد الحميد عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة ١/ ٢٣٠، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

(٢) بياض الناس: أو بياض أهل المدينة، أو بياض العامة، أو بياض: هم أهل الثراء الذين يستطيعون بثرائهم الحصول على كل أسباب الرغد ورفاهية العيش؛ دُوزِي: المرجع نفسه ١/ ٥٠٢؛ أحمد مختار عبد الحميد عمر: المرجع السابق ١/ ٢٧١.

(٣) الصعاليك: الصُعْلوكُ: الفقيرُ. وصَعاليكُ العرب: ذؤبانها. وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه. والتصعلك: الفقر. والصعاليك الَّذين لَا مالَ لَهُم وَلَا ضَيعة؛ الأزهري (محمد بن أحمد): تهذيب اللغة ١/ ٨٧، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م؛ الجوهري (إسماعيل بن حماد): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٤/ ١٥٩٥-١٥٩٦، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

١١٥٠-١٢٣٥م[١] إلى إربل وألف كتابا اسمه: "التنوير في مولد السراج المنير" لما رأى من اهتمام مظفر الدين به، فأعطاه ألف دينار غير ما غرم عليه مدة إقامته من الإقامات الوافرة.[٢]

وكان رحمه الله متى أكل شيئا استطابه لا يختص به، بل إذا أكل من زبدية لقمة طيبة قال لبعض الجنادرة[٣]: احمل هذا إلى الشيخ فلان أو فلانة ممن هم عنده مشهورون بالصلاح، وكذلك يعمل في الفاكهة والحلوى وغير ذلك من المطاعم. وكان كريم الأخلاق كثير التواضع حسن العقيدة سالم البطانة شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة لا ينفق عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين ومن عداهما لا يعطيه شيئا إلا تكلفا، وكذلك الشعراء لا يقول بهم ولا يعطيهم إلا إذا قصدوه، فما كان يضيع قصدهم ولا يخيب أمل من يطلب بره، وكان يميل إلى علم التاريخ، وعلى خاطره منه شيء يذاكر به، ولم يزل، رحمه الله تعالى، مؤيدا في مواقفه وحروبه مع كثرتها، لم ينقل أنه انكسر في مصاف قط، ولو استقصيت في تعداد محاسنه لطال الكتاب، ويعتذر ابن خلكان عن الإطالة في سرد محاسن الملك مظفر الدين، ولم يكن سببه إلا ما له عليه من الحقوق التي لا يقدر على القيام بشكر بعضها، فمهما عمل لن يوفيه حقه، وشكر المنعم واجب، فجزاه الله عنه أحسن الجزاء، فكم له عليه من الأيادي والإنعام، والإنسان صنيعة الإحسان، ومع الاعتراف بجميله فلم يذكر عنه شيئا على سبيل المبالغة، بل كل ما ذكره عن مشاهدة وعيان، وربما حذف بعضه طلبا للإيجاز.[٤]

هذا وقد ولد مظفر الدين زوج ربيعة خاتون بقلعة الموصل ليلة الثلاثاء السابعة والعشرين من المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وتوفي وقت الظهر ليلة الجمعة رابع عشر شهر رمضان سنة ثلاثين وستمائة بداره في البلد

---

(١) أبو الخطاب ابن دحية: هو العلامة عمرُ بْن حسن بْن عَلِيّ بْن مُحَمَّد، الكَلْبِيُّ الدّانيّ الأصلِ، السَبْتي. كان بصيرًا بالحديثِ مُعتنيًا بتقييدِه، مُكِبًّا عَلَى سماعه، حسن الحظ معروفًا بالضبطِ، لَهُ حظٌ وافرٌ من اللغّةِ، ومشاركةٌ فِي العربية وغيرها. وَلِيَ قضاءَ دانية مرتين، ثمّ صُرِفَ عن ذِلك فَرَحَل منها، ولَقِيَ بتلْمسان قاضيَها أَبَا الْحَسَن بْن أَبِي حَبّون. وحدَّث بتونس أيضًا سنة خمسٍ وتسعين. ثمّ حَجَّ، وكتب بالمشرق عن جماعة بأصبهان ونَيْسابور من أصحاب أَبِي عَلِيّ الحَدَّادِ، وأَبِي عَبْد اللَّه القُراويّ وغيرهما. وعادَ إلى مصرَ، فاستأدَبَهُ الملكُ العادلُ لابنه الكاملِ – وَلِيّ عهدِه – وأسكنَهُ القاهرةَ، فنالَ بذلك دنيا عريضةً. وكان يُسَمِّعُ ويُدَرِّسُ، وله تآليف منها: كتابُ "إعلام النّصّ المبين فِي المفاضلة بين أهل صِفّين". وكان كثير الوقيعةِ فِي الأئمة. وبسببِه بني السلطان الملكُ الكامل دارَ الحديث بالقاهرة، وجعلَه شيخها. وكَانَ أبو الخطاب مع فرط معرفته بالحديث وحفظِه الكثير لَهُ، مُتّهمًا بالمُجازفَة فِي النقل، وبلَغَ ذَلِكَ الملكَ الكاملَ، فنزلَتْ مرتبُته عندَه وعَزَلَه من دارِ الحديثِ ووَلَّى أخاه أَبَا عَمرو. سُئِلَ عن مولدِه، فقال: سنة ستٍ وأربعين وخمسمائة. وحُكّي عَنْهُ فِي مولده غيرُ ذَلِكَ. الغِبْريني (أحمد بن أحمد): عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجايَة ١/ ٢٦٩-٢٧٠، حققه وعلق عليه: عادل نويهض، الناشر: منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩ م؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ١٤/ ١١٣.

(٢) ابن خلكان: المصدر السابق ٤/ ١١٧-١١٩، علاء الدين مغلطاي (مغلطاي بن قليج): الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفا ١/ ٥٥٨ ها ٣، المحقق: محمد نظام الدين الفَتّيح، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م؛ الصفدي: المصدر السابق ٢٤/ ٢٨٣ ؛ ناظم رشيد: المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة ١/ ١٩-٢١، دار آفاق عربية، بغداد، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

(٣) الجنادرة: هم في عداد حرس السلاطين والباشوات وغيرهم. ويقول ابن بطوطة: في كلامه عن مقابلات سلطان اليمن: الجاؤشِيَّة وهم من الجنادرة. دوزي: المرجع السابق ٦/ ٢٢٩.

(٤) وفيات الأعيان ٤/ ١١٩- ١٢٠

التي كانت لمملوكه شهاب الدين قراطايا، فلما قبض عليه في سنة أربع عشرة وستمائة أخذها وصار يسكنها بعض الأوقات، فمات بها، ثم نقل إلى قلعة إربل ودفن بها، ثم حمل بوصية منه إلى مكة، شرفها الله تعالى، وكان قد أعد له بها قبة تحت الجبل في ذيله يدفن فيها، فلما توجه الركب إلى الحجاز سنة إحدى وثلاثين سيروه في الصحبة، فاتفق أن رجع الحاج تلك السنة من لينة،[١] ولم يصلوا إلى مكة، فردوه ودفنوه بالكوفة بالقرب من المشهد، رحمه الله تعالى وعوضه خيرا وتقبل مباره وأحسن منقلبه.[٢]

هذا وقد أنجب مظفر الدين من ربيعة خاتون بنتا زوجها من عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر المتوفي حوالي سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م[٣] صاحب قلعتي الشوش[٤] والعقر الحميدية.[٥] وقد وقف بجانبه في صراعه ضد بدر الدين لـؤلـؤ ٥٧٠-٦٥٧هـ = ١١٧٤-١٢٥٩م[٦] الوصي علي أرسـلان شاه شاه

---

(١) لِينَةُ: قال المفسرون في قوله تعالى: ما قطعتم من لينة، كل شيء من النخل سوى العجوة فهو من اللين، واحدتها اللينة، وقال السّكوني: لينة هو المنزل الرابع لقاصد مكة من واسط وهي كثيرة الركيّ والقلب، ماؤها طيب وبها حوض السلطان ومنه إلى الخلّ وهي لبني غاضرة، ويقال إنها ثلاثمائة عين؛ البكري (عبد الله بن عبد العزيز): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ٤/ ١١٦٧، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ؛ ياقوت: معجم البلدان ٥/ ٢٩.

(٢) ابن خلكان: المصدر السابق ٤/ ١٢٠.

(٣) عماد الدين زنكي: هو الابن الأصغر للملك نور الدين أرسلان شاه، أما الأكبر فهو الملك القاهر عز الدين أبو الفتوح مسعود الذي تولي الموصل وأعمالها بعد وفاة والدهما سنة ٦٠٧هـ، بينما أخذ عماد الدين زنكي قلعتي الشوش والعقر بالقرب من الموصل. ولما مات الملك مسعود سنة ٦١٥هـ أخذ عماد الدين قلعة العمادية، ثم أخذت منه، وهي من أحسن القلاع بجبل الهكارية من أعمال الموصل، وكذلك عدة قلاع مما يجاورها، وانتقل إلى إربل ثم توفي بشهرزور حوالي سنة ٦٣٠هـ.؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٢٠٧-٢٠٨؛ ابن فضل الله العمري (أحمد بن يحيى): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٢٧/ ٢١٩-٢٢٠، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

(٤) الشُوشّ: قلعة عظيمة عالية جدّا قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل، قيل: هي أعلى من العقر وأكبر ولكنها في القدر دونها، وإلى شوش ينسب حبّ الرّمّان الشوشي من قرية من قراها يقال لها شرملة؛ ياقوت: معجم البلدان ٣/ ٣٧٢؛ ابن عبد الحق (عبد المؤمن بن عبد الحق): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ٢/ ٨١٩، دار الجيل، بيروت: الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

(٥) العقر الحميدية: قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد وهي شرقي الموصل تعرف بعقر الحميدية. ياقوت: المصدر السابق ٤/ ١٣٦

(٦) بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الملقب بالملك الرحيم، وكان مملوك بنت أتابك زنكي. تولى أمر الموصل أتابكا لبعض الزنكيين ثم استبد بها لنفسه بعد وفاة مسعود بن أرسلان شاه سنة ٦١٥هـ، فحكمها مدة ٤٠ سنة حتى وفاته سنة ٦٥٦ هـ أو ٦٥٧. وصفه المؤرخون بأنه كان عاقلا حازما لبيبا جوادا كريما، ذا دهاء وحيلة. وقد طلب إلى عز الدين ابن الأثير أن يجمع تاريخا باسمه ففعل، فأجزل صلته، وكان كثير الإحسان للرعية، عادلا حسن السيرة كثير القتل وقد أنشأ مدرسة في الموصل تعرف بالبدرية. ابن المستوفي الإربلي (المبارك بن أحمد): تاريخ إربل، تحقيق: سامي بن سيد خماس الصقار ٢/ ١٧١- ١٧٢، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م؛ أبو الفداء: المصدر السابق ٣/ ١٣١.

الثاني ٦١٥-٦١٦هـ = ١٢١٨-١٢١٩م[١] بن الملك المسعود الثاني ٦٠٧-٦١٥ هـ = ١٢١٠-١٢١٨م[٢] ابن أخي عماد الدين زنكي حينما استولي الأخير علي بعض البلاد التابعة لابن أخيه لولا تدخل الملك الأشرف موسي ٥٧٨-٦٣٥هـ = ١١٨٢-١٢٣٧م ابن العادل وإجباره مظفر الدين صهر عماد الدين زنكي أن يرد البلاد التي استولي عليها لأرسلان شاه، ومن هنا صار هناك عداء دفين بين مظفر الدين وبدر الدين لؤلؤ بسبب استنجاد الأخير بالملك الأشرف وضبطه أمور البلاد لصالح ابن القاهر مسعود.[٣]

حاول عماد الدين زنكي صاحب قلعة عقر الحميدية وصهر مظفر الدين كوكبري أن يستغل صغر سن ابن أخيه أرسلان شاه ويستولي علي الموصل، وحدثته نفسه بالملك، لا يشك أنه صائر إليه بعد أخيه، لولا كما قلنا دور بدر الدين لؤلؤ الذي بذل جهدا كبيرا حتى وصل التقليد من الخليفة العباسي لنور الدين أرسلان شاه بحكم الموصل.

فعندما توفي نور الدين سنة ٦٠٧هـ أعطي ولده الأصغر زنكي قَلْعَتَيِ الْعَقْرَ وَشُوشَ، وَهَمَّا بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَوْصِلِ فَكَانَ تَارَةً يَكُونُ بِالْمَوْصِلِ، وَتَارَةً بِوِلَايَتِهِ، وَكَانَ بِقَلْعَةِ الْعِمَادِيَّةِ مُسْتَحْفِظٌ مِنْ مَمَالِيكِ جَدِّهِ عِزِّ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ مَوْدُودٍ ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م،[٤] قِيلَ إِنَّهُ جَرَى لَهُ مَعَ زَنْكِي مُرَاسَلَاتٌ فِي مَعْنَى تَسْلِيمِ الْعِمَادِيَّةِ[٥] إِلَيْهِ، فَنَمَى الْخَبَرُ بِذَلِكَ إِلَى بَدْرِ الدِّينِ، فَبَادَرَ بعزله وتسلم القلعة وعين نوابا بالقلاع الأخري. وكان نور الدين مريضا في ذلك الوقت، فاستغل

---

(١) أرسلان شاه: هو أرسلان شاه الثاني بن عز الدين مسعود الثاني، لما مات والده مسعود خلف ولدين هما: نور الدين أرسلان شاه المذكور، وكان سمي عليا في حياة جده أرسلان شاه، فلما مات جده نور الدين أرسلان شاه سموه باسمه، والثاني هو: ناصر الدين محمود. فتولى بعده نور الدين المذكور، وكان تقدير عمره عشر سنين، وبقي بعد أبيه قليلاً وتوفي في بقية السنة ٦١٥هـ. وتولى أخوه بعده ناصر الدين محمود، والمدبر لأمر المملكة بدر الدين لؤلؤ الذي ملك الموصل فيما بعد. ابن خلكان: المصدر السابق ٥/ ٢٠٨.

(٢) الملك مسعود: هو الْملك القاهر عز الدّين مَسْعُود بن أرسلان شاه بن مَسْعُود بن مودود بن عماد الدّين زنكي آقسنقر صَاحب الْموصل، ولد في سنة تسعين وخمسمائة بالموصل، وتوفي بها فجأة ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وستمائة، وكان قد بنى مدرسة أيضاً فدفن بها. وَكَانَت مُدَّة ملكه سبع سِنِين وَتِسْعَة أشهر وَقَامَ من بعده ابْنه نور الدّين أرسلان شاه وعمره عشر سِنِين فدبر أمره الْأَمِير بدر الدّين لُؤْلُؤ الأتابك فأقرهما الْخَلِيفَة النَّاصِر. ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣١٣؛ ابن خلكان: المصدر نفسه ٥/ ٢٨٠؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٣١٨.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ١٠/ ٣١٤. ابن العديم (عمر بن أحمد): زبدة الحلب في تاريخ حلب ١/ ٤٦٣، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٢٠٨.

(٤) عز الدين مسعود: أَتَابِكُ عِزُّ الدِّينِ مَسْعُودُ بْنُ مَوْدُودِ بْنِ زِنْكِيِّ بْنِ آقْسُنْقُرَ صَاحِبُ الْمَوْصِلِ، تُوُفِّيَ سنة ٥٨٩هـ بِالْمَوْصِلِ، وَدُفِنَ بِالْمَدْرَسَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا مُقَابِلَ دَارِ الْمَمْلَكَةِ، وَكَانَ قَدْ بَقِيَ مَا يَزِيدُ عَلَى عَشَرَةِ أَيَّامٍ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِغَيْرِهَا اسْتَغْفَرَ اللَّهَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَرُزِقَ خَاتِمَةَ خَيْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَكَانَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، خَيِّرَ الطَّبْعِ، كَثِيرَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، لَا سِيَّمَا إِلَى شُيُوخٍ قَدْ خَدَمُوا أَبَاهُ، فَإِنَّهُ كَانَ يَتَعَهَّدُهُمْ بِالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، وَالصِّلَةِ وَالْإِكْرَامِ، وَيَرْجِعُ إِلَى قَوْلِهِمْ، وَيَزُورُ الصَّالِحِينَ، وَيُقَرِّبُهُمْ وَيُشَفِّعُهُمْ. وَكَانَ قَدْ حَجَّ، وَلَبِسَ بِمَكَّةَ، حَرَسَهَا اللَّهُ، خِرْقَةَ التَّصَوُّفِ: وَكَانَ يَلْبَسُ تِلْكَ الْخِرْقَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ، وَيَخْرُجُ إِلَى مَسْجِدٍ قَدْ بَنَاهُ فِي دَارِهِ، وَيُصَلِّي فِيهِ نَحْوَ ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَكَانَ رَقِيقَ الْقَلْبِ، شَفِيقًا عَلَى الرَّعِيَّةِ. ابن الأثير: المصدر نفسه ١٠/ ١٢٣؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ١/ ٢٢٤.

(٥) العِمَادِيّة: قلعة حصينة مكينة عظيمة في شمالي الموصل ومن أعمالها، عمرها عماد الدين زنكي بن آق سنقر في سنة ٥٣٧، وكان قبلها حصنا للأكراد اسمه آشب خرّبوه فأعاده زنكي وسماه باسمه. ياقوت: معجم البلدان٤/ ١٤٩؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع ٢/ ٩٥٩

زنكي الفرصة وأرسل إلي من بالعمادية يخبرهم بوفاة ابن أخيه، وأن بدر الدين لؤلؤ يريد أن يملك البلاد، وأنه أحق بملك آبائه وأجداده، فاستدعاه الجنود، وسلموها إليه، ١٨ رمضان سنة ٦١٥هـ، وَقَبَضُوا عَلَى نَّائِبِ بدر الدين لؤلؤ وَمَنْ مَعَهُ. فبلغ ذلك الأخير، فسار إلي العمادية وفرض الحصار عليها وبها عماد الدين زنكي، وهنا قَامَ مُظَفَّرُ الدِّينِ كُوكُبْرِي بْنُ زَيْنِ الدِّينِ، صَاحِبُ إِرْبِلَ، بمساعدة صهره عِمَادِ الدِّينِ، وَتَجَرَّدَ لِمُسَاعَدَتِهِ، فَرَاسَلَهُ بَدْرُ الدِّينِ يُذَكِّرُهُ الْأَيْمَانَ وَالْعُهُودَ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا أَنَّهُ لَا يَتَعَرَّضُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ الْمَوْصِلِ،وَمَتَى تَعَرَّضَ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، مَنَعَهُ بِنَفْسِهِ وَعَسَاكِرِهِ، وَأَعَانَ نُورَ الدِّينِ وَبَدْرَ الدِّينِ عَلَى مَنْعِهِ، وَيُطَالِبُهُ بِالْوَفَاءِ بِهَا. ثُمَّ نَزَلَ عَنْ هَذَا، وَرَضِيَ مِنْهُ بِالسُّكُوتِ لَا لَهُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَفْعَلْ، وَأَظْهَرَ مُعَاضَدَةَ عِمَادِ الدِّينِ زَنْكِي، فَحِينَئِذٍ لَمْ يستطع لؤلؤ محاربة زَنْكِي بِالرِّجَالِ وَالْعَسَاكِرِ لِقُرْبِ هَذَا الْخَصْمَ (مظفر الدين) مِنَ الْمَوْصِلِ وَأَعْمَالِهَا. وراسَلَ زَنْكِي بَاقِي قِلَاعِ الْهَكَّارِيَّةِ وَالزَّوْزَانِ، وَاسْتَدْعَاهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ، فَأَجَابُوهُ، وَسَلَّمُوا إِلَيْهِ، فَجَعَلَ فِيهَا الْوُلَاةَ.(١)

لِمَا رَأَى بَدْرُ الدِّينِ خُرُوجَ الْقِلَاعِ عَنْ يَدِهِ، وَاتِّفَاقَ مُظَفَّرِ الدِّينِ وَعِمَادِ الدِّينِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَنْفَعْ مَعَهُمَا اللِّينُ وَلَا الشِّدَّةُ، وَأَنَّهُمَا لَا يَزَالَانِ يَسْعَيَانِ فِي أَخْذِ بِلَادِهِ، وَيَتَعَرَّضَانِ إِلَى أَطْرَافِهَا بِالنَّهْبِ وَالْأَذَى، أَرْسَلَ إِلَى الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ مُوسَى ابْنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ، يَطْلُبُ منه مُعَاضَدَتَهَ، ودخل في طاعته، فَأَجَابَهُ الْأَشْرَفُ، ووعده بالمساعدة، وَاسْتِعَادَةَ مَا أُخِذَ مِنَ الْقِلَاعِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ. فَأَرْسَلَ إِلَى مُظَفَّرِ الدِّينِ يُقَبِّحُ ما فعله، وطلب منه ضرورة إِعَادَةِ مَا أُخِذَ مِنْ بلاد الْمَوْصِلِ والمحافظة عَلَى الْيَمِينِ الَّتِي اسْتَقَرَّتْ بَيْنَنَا، فَإِنِ امْتَنَعْتَ، وَأَصْرَرْتَ عَلَى مُعَاضَدَةِ زَنْكِي وَنُصْرَتِهِ، فَأَنَا أَجِيءُ بِنَفْسِي وَعَسَاكِرِي، وَأَقْصِدُ بِلَادَكَ وَغَيْرَهَا، وَأَسْتَرِدُّ مَا أَخَذْتُمُوهُ، وَأُعِيدُهُ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَالْمَصْلَحَةُ أَنَّكَ تُوَافِقُ، وَتَعُودُ إِلَى الْحَقِّ؛ لِنَجْعَلَ شُغْلَنَا جَمْعَ الْعَسَاكِرِ، وَقَصْدَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَإِجْلَاءِ الْفِرِنْجِ عَنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْظُمَ خَطْبُهُمْ وَيَسْتَطِيرَ شَرُّهُمْ.(٢)

لم يستمع مظفر الدين لنصح الملك الأشرف ويكف عن مساعدة صهره زنكي الذي غادر العمادية بعد أن فك لؤلؤ الحصار عنها، وذهب إلي مقر حكمه قلعة العقر، ومن هناك أراد أن يبسط سيطرته علي أعمال الموصل بالصحراء، فاستولي علي بَلَدَ الْجَبَلِ، وَأَمَدَّهُ مُظَفَّرُ الدِّينِ بِطَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْعَسْكَرِ. فَلَمَّا وصل الْخَبَرُ إلي بدْرِ الدِّينِ سَيَّرَ طَائِفَةً مِنْ عَسْكَرِهِ إِلَى أَطْرَافِ بلاد الْمَوْصِلِ يَحْمُونَهَا، فَأَقَامُوا عَلَى أَرْبَعَةِ فَرَاسِخَ مِنَ الْمَوْصِلِ، ثُمَّ إِنَّهُمُ اتَّفَقُوا بَيْنَهُمْ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى زَنْكِي، وَهُوَ عِنْدَ الْعَقْرِ فِي عَسْكَرِهِ، وَمُحَارَبَتِهِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَلَمْ يَأْخُذُوا أَمْرَ بَدْرِ الدِّينِ بَلْ أَعْلَمُوهُ بِمَسِيرِهِمْ، وَصَبَّحُوا زَنْكِي بُكْرَةَ الْأَحَدِ لِأَرْبَعٍ بَقِينَ مِنَ الْمُحَرَّمِ مِنْ سَنَةِ سِتَّ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ، فَالْتَقَوْا وَاقْتَتَلُوا تَحْتَ الْعَقْرِ، وَعَظُمَ الْخَطْبُ بَيْنَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ نَصـرَهُ عَلَى الْعَسْـكَرِ الْبَدْرِيِّ، فَانْهَزَمَ عِمَادُ الدِّينِ وَعَسْـكَرُهُ، وَسَارَ إِلَى إِرْبِلَ

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ١٠/ ٣١٥-٣١٦.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ١٠/ ٣١٦-٣١٧.

مُنْهَزِمًا، وَعَادَ الْعَسْكَرُ الْبَدْرِيُّ إِلَى مَنْزِلَتِهِ الَّتِي كَانَ بِهَا، وَحَضَرَتِ الرُّسُلُ مِنَ الْخَلِيفَةِ الناصر لدين الله ٥٥٣-٦٢٢هـ = ١١٥٨-١٢٢٥م[١] وَمِنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ فِي تَجْدِيدِ الصُّلْحِ، فَاصْطَلَحُوا، وَتَحَالَفُوا بِحُضُورِ الرُّسُلِ.[٢]

وعندما تُوُفِّيَ نُورُ الدِّينِ أرسلان شاه ٦١٥-٦١٦ = ١٢١٨-١٢١٩م، وَمَلَكَ أَخُوهُ نَاصِرُ الدِّينِ محمود ٦١٦-٦٣١هـ = ١٢١٩-١٢٣٢م،[٣] تَجَدَّدَت مطامع مُظَفَّرِ الدِّينَ وزوج ابنته عِمَادِ الدِّينِ لِصِغَرِ سِنِ نَاصِرِ الدِّينِ، فَجَمَعَا الرِّجَالَ وَقَصَدَ بَعْضُ أَصْحَابِهِمْ طَرَفَ وِلَايَةِ الْمَوْصِلِ بِالنَّهْبِ وَالْفَسَادِ. فَلَمَّا رَأَى بَدْرُ الدِّينِ تَحَرُّكَ مُظَفَّرِ الدِّينِ وَعِمَادِ الدِّينِ، وَأَنَّ بَعْضَ عَسْكَرِهِ بِالشَّامِ، أَرْسَلَ إِلَى عَسْكَرِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الَّذِي بِنَصِيبِينَ[٤] يَسْتَدْعِيهِمْ لِيَعْتَضِدَ بِهِمْ، فَسَارُوا إِلَى الْمَوْصِلِ رَابِعَ رَجَبٍ سَنَةَ ٦١٦هـ. وَنَزَلُوا عَلَى فَرْسَخٍ مِنَ الْمَوْصِلِ شَرْقِيَّ دِجْلَةَ، فَلَمَّا سَمِعَ مُظَفَّرُ الدِّينَ ذَلِكَ جَمَعَ عَسْكَرَهُ، وَسَارَ إِلَيْهِمْ وَمَعَهُ زَنْكِي، فَعَبَرَ الزَّابَ، فَسَمِعَ بِهِ بَدْرُ الدِّينِ فَعَبَّأَ أَصْحَابَهُ، ودارت معركة بين الجانبين فِي الْعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ عَلَى بعد ثَلَاثَةِ فَرَاسِخَ مِنَ الْمَوْصِلِ، تبادلا خلالها النصر والهزيمة حتى جَاءَتِ الرُّسُلُ وَسَعَوْا فِي الصُّلْحِ، فَاصْطَلَحُوا عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ بِيَدِهِ شَيْءٌ هُوَ لَهُ ،وَتَقَرَّرَتِ الْعُهُودُ وَالْأَيْمَانُ عَلَى ذَلِكَ.[٥]

لقد واصل مظفر الدين وصهره زنكي مسلسل الاعتداء علي أملاك الزنكيين بالموصل ولم يحترما ما حدث من صلح فانتزع زنكي كَوَاشَى وهي مِنْ أَحْصَنِ قِلَاعِ الْمَوْصِلِ وَأَعْلَاهَا وَأَمْنَعِهَا، وَكَانَ الْجُنْدُ الَّذِينَ بِهَا، لَمَّا رَأَوْا مَا فَعَلَ أَهْلُ الْعِمَادِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ التَّسْلِيمِ إِلَى زَنْكِي وَأَنَّهُمْ قَدْ تَحَكَّمُوا فِي الْقِلَاعِ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ، أَحَبُّوا أَنْ يَكُونُوا كَذَلِكَ، فَأَخْرَجُوا نُوَّابَ بَدْرِ الدِّينِ عَنْهُمْ، وَامْتَنَعُوا بِهَا، وَرَاسَلُوا زَنْكِي فِي الْمَجِيءِ إِلَيْهِمْ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ وَتَسَلَّمَ الْقَلْعَةَ، وَأَقَامَ عِنْدَهُمْ، فَرُوسِلَ مُظَفَّرُ الدِّينِ يُذَكِّرُ بِالْأَيْمَانِ الْقَرِيبَةِ الْعَهْدِ وَيُطْلَبُ مِنْهُ إِعَادَةَ كَوَاشَى، فَلَمْ تَقَعِ الْإِجَابَةُ إِلَى ذَلِكَ، فَأَرْسَلَ حِينَئِذٍ بَدْرُ الدِّينِ إِلَى الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ، وَهُوَ بِحَلَبَ، يَسْتَنْجِدُهُ، فَسَارَ وَعَبَرَ الْفُرَاتَ إِلَى حَرَّانَ ولكن ببطء. وَسَبَبُ هَذَا أَنَّ مُظَفَّرَ الدِّينِ كَانَ يُرَاسِلُ الْمُلُوكَ أَصْحَابَ الْأَطْرَافِ لِيَسْتَمِيلَهُمْ، وَيُحَسِّنَ لَهُمُ الْخُرُوجَ عَلَى الْأَشْرَفِ،

---

(١) الناصر لدين الله: هُوَ أمير المؤمنين أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد النَّاصِر لدين الله بن الإِمَام أبي مُحَمَّد الْحسن المستضيء بِأَمْر الله بن الإِمَام أبي المظفر يُوسُف المستنجد بِاللَّه بن الإِمَام أبي عبد الله مُحَمَّد المقتفى لأمر الله ، بُويِعَ لَهُ يَوْم الْأَحَد مستهل ذِي الْقعدَة سنة ٥٧٥هـ صَبِيحَة الْيَوْم الْمَذْكُور وخطب لَهُ بِمَدِينَة السَّلَام بِبَغْدَاد وَنثرت الدَّنَانِير على المنابر بجوامعها وسيرت الْكتب مَعَ الرُّسُل إِلَى الْبِلَاد الإِسلامية. تُوُفِّي يَوْم الْأَحَد سلخ رَمَضَان سنة اثْنَتَيْنِ وَعشْرين وسِتمِائَة وَكَانَت خِلَافَته سَبْعَة وَعشْرين سنة. ابن الجوزي (جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن): تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير ١/ ٧٠، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م؛ الملك المنصور، مضمار الحقائق وسر الخلائق ١/ ٤-٥.

(٢) ابن الأثير: نفسه ١٠/ ٣١٧.

(٣) ناصر الدين محمود: هُوَ نَاصِر الدّين مَحْمُود بن القاهر مَسْعُود توفي سنة ٦١٩هـ، فاسْتَقل بدر الدّين لُؤْلُؤ بِملك الْموصل، بعد وفاة الطِّفْل الَّذِي نَصبه، وعاضده الْأَشْرَف بن الْعَادِل، وَقلع لُؤْلُؤ الْبَيْت الأتابكي بِالْكُلِّيَّةِ، وَملك الْموصل نيفاً وَأَرْبَعين سنة بالإضافة إِلي تحكمه أَيَّام أستاذه أرسلان شاه وَابْنه القاهر؛ ابن الوردي (عمر بن مظفر)، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٤١، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

(٤) نصيبين: نصيبين مدينة تاريخية قصبة ديار ربيعة في الجزيرة الفراتية العليا ومنطقة إدارية تقع حاليًا ضمن حدود تركيا وتتبع اليوم محافظة ماردين. المهلبي (الحسن بن أحمد): الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك ١/ ١١٢، جمعه وعلق عليه ووضع حواشيه: تيسير خلف، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق ١٠/ ٣١٨-٣١٩.

وَيُخَوِّفَهُمْ مِنْهُ، فَأَجَابَهُ بعضهم إلي ذلك. وَكَانَ مُظَفَّرُ الدِّينِ قَدْ رَاسَلَ جَمَاعَةً مِنَ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ مَعَ الْأَشْرَفِ، وَاسْتَمَالَهُمْ، فَأَجَابُوهُ، وَفَارَقُوا الْأَشْرَفَ، وَنَزَلُوا بِدُنَيْسِرَ،(١) تَحْتَ مَارِدِينَ،(٢) لِيَجْتَمِعُوا مَعَ صَاحِبِ آمِدَ،(٣) وَيَمْنَعُوا الْأَشْرَفَ مِنَ الْعُبُورِ إِلَى الْمَوْصِلِ لِمُسَاعَدَةِ بَدْرِ الدِّينِ.(٤)

علي أية حال وصل الملك الأشرف بجنوده إلي مدينة الموصل يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ تَاسِعَ عَشَرَ جُمَادَى الْأُولَى سنة ٦١٩هـ/ ٣٠ يونيو ١٢٢٢م، وَأَتَاهُ رُسُلُ الْخَلِيفَةِ وَمُظَفَّرُ الدِّينِ ليطلبا الصُّلْحِ، علي أن يسلم القلاع التي أخذها إلي بدر الدين لؤلؤ مَا عَدَا قَلْعَةَ الْعِمَادِيَّةِ فَإِنَّهَا تَبْقَى بِيَدِ زَنْكِي، وَإِنَّ الْمَصْلَحَةَ قَبُولَ هَذَا لِتَزُولَ الْفِتَنُ، ويتفرغوا لجِهَادِ الْفِرِنْجِ. وَطَالَ الْحَدِيثُ فِي ذَلِكَ نَحْوَ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ رَحَلَ الْأَشْرَفُ يُرِيدُ مُظَفَّرَ الدِّينِ صَاحِبَ إِرْبِلَ، فَوَصَلَ إِلَى قَرْيَةِ السَّلَامِيَّةِ، بِالْقُرْبِ مِنْ نَهْرِ الزَّابِ، وَكَانَ مُظَفَّرُ الدِّينِ نَازِلًا عَلَيْهِ مِنْ جَانِبِ إِرْبِلَ، فَأَعَادَ الرُّسُلَ، وانتهي الأمر بحدوث الصلح بينهما، وَحُمِلَ زَنْكِي إِلَى الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ يَكُونُ عِنْدَهُ رَهِينَةً إِلَى حِينِ تَسْلِيمِ الْقِلَاعِ. وَسُلِّمَتْ قَلْعَةُ الْعَقْرِ، وَقَلْعَةُ شُوشَ أَيْضًا، وَهُمَا لِزَنْكِي، إِلَى نُوَّابِ الْأَشْرَفِ رَهْنًا عَلَى تَسْلِيمِ مَا اسْتَقَرَّ مِنَ الْقِلَاعِ، فَإِذَا سُلِّمَتْ أُطْلِقَ زَنْكِي، وَأُعِيدَ عَلَيْهِ قَلْعَةُ الْعَقْرِ، وَقَلْعَةُ شُوشَ، وَحَلَفُوا عَلَى هَذَا، وَسَلَّمَ الْأَشْرَفُ زَنْكِي الْقَلْعَتَيْنِ وَعَادَ إِلَى سِنْجَارَ،(٥) وَكَانَ رَحِيلُهُ عَنِ عَنِ الْمَوْصِلِ ثَانِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ، فَأَرْسَلُوا إِلَى الْقِلَاعِ لِتُسَلَّمَ إِلَى نُوَّابِ بَدْرِ الدِّينِ، فَلَمْ يُسَلَّمْ إِلَيْهِ غَيْرُ قَلْعَةِ جَلَّ صُوَرَا، مِنْ أَعْمَالِ الْهَكَّارِيَّةِ، وَأَمَّا بَاقِي الْقِلَاعِ فَإِنَّ جُنْدَهَا أَظْهَرُوا الِامْتِنَاعَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَضَى الْأَجَلُ وَلَمْ يُسَلَّمْ غَيْرُ جُلَّ صُوَرَا.(٦)

---

(١) دُنَيْسِرُ: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان، ولها اسم آخر يقال لها قوج حصار. أبو الحسن الهروي (علي بن أبي بكر): الإشارات إلى معرفة الزيارات ١/ ٥٩، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ؛ ياقوت: المصدر السابق ٢/ ٤٧٨ .

(٢) ماردين: هي مدينة تقع جنوب شرق الأناضول وهي عاصمة محافظة ماردين. السمعاني (عبد الكريم بن محمد): الأنساب ١٢/ ١٩، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م؛ ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد): اللباب في تهذيب الأنساب ٣/ ١٤٤، دار صادر، بيروت؛ ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

(٣) آمِدُ: هي مدينة عتيقة تقع حيث موقع ديار بكر اليوم ، في أقصى ما بين النهرين عرفت المدينة تاريخيا باسمها هذا حتى سيطرة العثمانيين عليها في القرن السادس عشر. واسم (أمد أو ئامەد بالكردية) ما زال متداولاً بين سكانها الكرد الذين يشكلون غالبية سكان المدينة. ودجلة محيطة بها من جوانبها إلا من جهة واحدة على شكل الهلال. القزويني (زكريا بن محمد): آثار البلاد وأخبار العباد ١/ ٤٩١، دار صادر، بيروت، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣١٩- ٣٢٠.

(٥) سِنْجَارُ: مدينة عراقية تقع غرب نينوى شمال العراق. اليعقوبي (أحمد بن إسحاق): البلدان ١٨٨/١، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٦) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٢٢-٣٢٣.

وبعد ذلك بدأ عماد الدين زنكي يتقرب من شِهَابِ الدِّينِ غَازِي ابْنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ ٦٤٥هـ = ١٢٤٧م،[١] وَلَزِمَه وَخَدَمَهُ، وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ، فَاسْتَعْطَفَ لَهُ أَخَاهُ الْمَلِكَ الْأَشْرَفَ، فَمَالَ إِلَيْهِ وَأَطْلَقَهُ، وَأَزَالَ نُوَّابَهُ مِنْ قَلْعَةِ الْعَقْرِ وَقَلْعَةِ شُوشَ، وَسَلَّمَهُمَا إِلَيْهِ.وَبَلَغَ بَدْرَ الدِّينِ عَنِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ مَيْلٌ إِلَى قَلْعَةِ تَلِّ يَعْفَرَ،[٢] وَإِنَّهَا كَانَتْ لِسِنْجَارَ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ، وَطَالَ الْحَدِيثُ فِي ذَلِكَ، فَسَلَّمَهَا إِلَيْهِ بَدْرُ الدِّينِ.[٣]

وعلي الرغم مما تحلي به صَاحِبُ إِرْبِلَ الْمَلِكُ الْمُظَفَّرُ أَبُو سَعِيدٍ كُوكْبُرِي بْنُ زَيْنِ الدِّينِ عَلِيٍّ من كرم وشجاعة وقيامه بأعمال بر ضخمة، إلا أنه كان محل انتقاد من قبل زوجته ربيعة خاتون التي كانت تعتب عليه بساطة ملابسه ورخص ثمنها، رغم غناه وإنفاقه ببذخ في المناسبات المختلفة، ولكنه رد عليها بأن فلسفته في الحياة هو أنه يرتدي الملابس البسيطة، ولكنه في الوقت نفسه يمد يده للفقراء والمحتاجين، وهذا هو مصدر سعادته الحقيقي، وليس في ارتداء الملابس الثمينة، وهو ما رصدته المصادر التاريخية، فقد حَكَى بَعْضُ مَنْ حَضَرَ سِمَاطَ المظفر في بعض الموالد أنه كان يمد في ذلك السماط خمسة آلاف رأس مشوي، وَعَشَرَةَ آلَافِ دَجَاجَةٍ، وَمِائَةَ أَلْفِ زُبْدِيَّةٍ، وَثَلَاثِينَ أَلْفَ صَحْنِ حَلْوَى، وَكَانَ يَحْضُرُ عِنْدَهُ فِي الْمَوْلِدِ أَعْيَانُ الْعُلَمَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ فَيَخْلَعُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ لَهُ دَارُ ضِيَافَةٍ لِلْوَافِدِينَ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ عَلَى أَيِّ صِفَةٍ، وَكَانَتْ صَدَقَاتُهُ فِي جَمِيعِ الْقُرَبِ والطاعات على الحرمين وغيرهما، ويفتك مِنَ الْفِرِنْجِ فِي كُلِّ سَنَةٍ خَلْقًا مِنَ الأسرى، حتى قيل إن جملة من أطلق سراحه مِنْ أَيْدِيهِمْ سِتُّونَ أَلْفَ أَسِيرٍ، ومع ذلك قَالَتْ زَوْجَتُهُ ربيعة خاتون بنت أيوب – وكان قد زَوَّجَهُ إِيَّاهَا أَخُوهَا صَلَاحُ الدِّينِ، لَمَّا كَانَ مَعَهُ عَلَى عَكَّا–: كَانَ قَمِيصُهُ لَا يساوى خمسة دراهم فَعَاتَبْتُهُ بِذَلِكَ فَقَالَ: لُبْسِي ثَوْبًا بِخَمْسَةٍ وَأَتَصَدَّقَ بِالْبَاقِي خَيْرٌ مِنْ أَنْ أَلْبَسَ ثَوْبًا مُثَمَّنًا وأدع الفقير المسكين، وَكَانَ يَصْرِفُ عَلَى الْمَوْلِدِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ثَلَاثَمِائَةِ أَلْفَ دِينَارٍ، وَعَلَى دَارِ الضِّيَافَةِ فِي كل سنة مائة أَلْفَ دِينَارٍ. وَعَلَى الْحَرَمَيْنِ وَالْمِيَاهِ بِدَرْبِ الْحِجَازِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ سِوَى صَدَقَاتِ السِّرِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ بِقَلْعَةِ إِرْبِلَ، وَأَوْصَى أَنْ يُحْمَلَ إِلَى مَكَّةَ فَلَمْ يَتَّفِقْ فَدُفِنَ بِمَشْهَدِ عَلِيٍّ.[٤]

---

(١) شهاب الدين غازي: هو السُّلْطَانُ، المَلِكُ المُظَفَّر، شِهَابُ الدِّيْنِ غَازِي ابْنُ المَلِكِ العَادِلِ أَبِي بَكْرِ بن أَيُّوْبَ صَاحِب خِلاَط وَمَيَّافَارقين وَحصن مَنْصُوْر وَغَيْر ذَلِكَ. وَكَانَ ملكاً جَوَاداً، حَازِماً، شَهْماً، شُجَاعاً، مَهِيْباً، حُلْو المحَاضَرَة، حَسَن الجُمْلَة، كَبِيْرَ الشَّأْنِ، وَقَدْ حَجَّ فِي تَجمّل زَائِد عَلَى درب العِرَاق. مَاتَ: فِي رَجَب، سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَسِتّمائَة، وَقَدْ شَاخَ، فَتَمَلَّكَ بَعْدَهُ ابْنه المَلِك الكَامِل نَاصِر الدِّيْنِ مُحَمَّد بن غَازِي الشَّهِيْد. وَقَدْ قَتَلَ هولاكو نَاصِر الدِّيْنِ هَذَا فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِيْنَ عتْوّاً وَغدراً – فرَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – فَلَقَدْ كَانَ دَيِّناً وَمُجَاهِداً، ثَبَتَ فِي الحصَار إِلَى أَنْ تَفَانت رِجَاله، وَأَهْلكهُم الْجُوع، وَقَاتلت مَعَهُ النِّسَاء. الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٣٣–١٣٤.

(٢) تَلُّ أَعْفَرَ: بالفاء هكذا تقول عامة الناس، وأما خواصهم فيقولون تلّ يعفر، وقيل إنما أصله التلّ الأعفر للونه فغيّر بكثرة الاستعمال وطلب الخفة: وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط واد فيه نهر جار، وهي على جبل منفرد حصينة محكمة. وتل أعفر أيضا: بليدة قرب حصن مسلمة بن عبد الملك بين حصن مسلمة والرقة من نواحي الجزيرة، ياقوت: المصدر السابق ٢/ ٣٩؛ ابن عبد الحق، المصدر السابق ١/ ٢٦٨.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٢٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٣٧؛ السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر): الحاوي للفتاوى ١/ ٢٢٢، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م؛ الصالحي الشامي (محمد بن يوسف): سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ١/ ٣٦٣، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

هذا وقد خرجت ربيعة خاتون زوج مظفر الدين من إربل تؤدي مناسك الحج في سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م، وقد أرسل إليها ابن أخيها صاحب حلب،[١] وهو الظاهر الملك غازي ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي ٥٦٨-٦١٣هـ = ١١٧٣-١٢١٦م.[٢]

أحد العلماء وهو أحمد بن عبد الله علوان،[٣] ليعلمها شعائر الحج، وهو ما أشار إليه المؤرخ ابن العديم بقوله: "وكان بعد ذلك (أحمد بن علوان) يتردد من حلب حاجا إلى مكة في بعض السنين، وكان يجاور في بعضها، وآخر حجة حجّها في سنة ثمان وستمائة، سيره الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب ليلحق عمته ربيعه خاتون بنت أيوب، وكانت قد حجت في هذه السنة، ليعلمها مناسك الحج، وكانت قد حجت من إربل، وعادت إلي الشام، فقدم معها، وكنت (أي ابن العديم) بالبيت المقدس، فقدم علينا معها في أوائل سنة تسع وستمائة، وأقام بعدها بحلب إلى أن مات".[٤]

وقد أبانت ربيعة خاتون عن شخصية قوية خلال موسم حج سنة ٦٠٨هـ، وهددت حاكم مكة الشريف قتادة ٥٢٧-٦١٧هـ = ١١٣٣-١٢٢٠م[٥] إن لم يرتدع عن أعمال السلب والنهب الواسعة التي قام بها ضد الركْب

---

(١) حلب: هي أكبر مدينة في سوريا وهي عاصمة محافظة حلب التي تعد أكبر المحافظات السورية من ناحية تعداد السكان. وهي تقع شمال غربي سوريا على بعد ٣١٠ كم من دمشق. الأمير محمَّد عَلي (محمد بن توفيق): الرحلة الشامية ١/ ١٢٨، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

(٢) الظاهر غازي: هو الملك الظاهر غازي بن يوسف ، ولد السلطان صلاح الدّين يوسف بن أيوب. ولد بمصر سنة ٥٦٨هـ، وكان بديع الحسن، كامل الملاحة، ذا غور ودهاء، أعطاه والده مملكة حلب في سنة ٥٨٢هـ بعد أن كانت لعمّه الملك العادل، فنزل عنها وتعوّض غيرها، وتوفي بقلعة حلب ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة سنة ٦١٣هـ، ودفن بالقلعة. ابن العماد (عبد الحي بن أحمد): شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٧/ ١٠٢-١٠٣، حققه: محمود الأرناؤوط خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٣) أحمد بن علوان: هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن علوان الأسدي الحلبي، ولد في سنة إحدى أو اثنتين وأربعين وخمسمائة، شيخ حسن صالح، زاهد ورع، حسن الأخلاق، كثير العبادة والدعاء. سمع بحلب الحافظ أبا بكر محمد بن علي بن ياسر الحياني، وأبا طالب عبد الرحمن بن الحسن بن العجمي الحلبي، ومحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود المسعودي وغيرهم، وسمع بمكة أبا محمد عبد الدائم بن عمر بن حسين الكتاني وغيره، وبالموصل أبا الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسي. سار من حلب في صحبة والدته، وكانت امرأة صالحة، وصحبة أخيه الشيخ علوان إلى الحج، فجاور بمكة مع أخيه ووالدته يخدمهما إلى أن مات أخوه علوان، فأقام بمكة يخدم والدته إلى أن ماتت، فكانت إقامته بمكة عشرين سنة متوالية يخدم والدته، ثم عاد إلى حلب من مكة بأخت له كانت مع والدته، وكان بعد ذلك يتردد من حلب إلي مكة حاجاً في بعض السنين، وكان يجاور في بعضها، ثم عاد إلي حلب وأقام بها حتى وفاته. ولذلك قال عنه بعضهم: لو صعد أحد إلى السماء بخدمة والدته لصعد الشيخ أحمد، فإنه لم يخدم أحد والدته مثل خدمته. وقال بعضهم: بلغني أنه طاف ليلة بأمه من العشاء إلى الصباح ويدها على كتفه لضعفها ومعه إبريق فيه ماء، وهو يطوف والماء معه معدّ لأمه إن عرضت لها حاجة إليه. ابن العديم (عمر بن أحمد): بغية الطلب في تاريخ حلب ٢/ ٩٢٢-٩٢٣، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر.

(٤) بغية الطلب في تاريخ حلب ٢/ ٩٢٢- ٩٢٣

(٥) الشريف قَتَادَة: هو الشريف أَبُو عَزِيز قَتَادَة بن أبي مَالك إِدْرِيس بن مطاعن بن عبد الْكَرِيم ابْن عِيسَى بن حُسَيْن بن سُلَيْمَان بن على بن عبد الله بن مُحَمَّد بن مُوسَى بن عبد الله ابْن مُوسَى بن عبد الله بن الْحسن بن الْحسن بن على بن أبي طَالب رَضِي الله عَنهُ

العراقي حينما استنجد واستغاث بها أمير الحجاج العراقيين. ففي السنة المذكورة حدثت بمنى ومكة فتنة عظيمة، قتل فيها الحجاج العراقيون ونهبوا نهبا ذريعا. فقد وفد الحجاج من العراق، والشام، والقدس، وكانت ربيعة خاتون أخت الملك العادل ضمن الحجاج؛ فلما كان يوم النحر بمنى بعد ما رمى الناس الجمرة، وثب الإسماعيلية على رجل شريف من بني عم قتادة شديد الشبه به؛ وظنوه إياه، فقتلوه عند الجمرة. ويقال: إن الذي قتله كان مع أم جلال الدين،(١) وثار عبيد مكة والأشراف، وصعدوا على الجبلين بمنى، وهللوا وكبروا وضربوا الناس بالحجارة والنبل والمقاليع والنشاب، ونهبوا الناس يوم العيد وأثناء الليل واليوم الثاني، وقتل من الفريقين جماعة؛ فأراد حجاج العراق أن يرحلوا إلى الزاهر(٢) حيث ينزل الحجاج الشاميون؛ فلما حملت الأثقال على الجمال حمل قتادة أمير مكة والعبيد، فأخذوا الجميع إلا القليل. وكانت ربيعة خاتون بالزاهر ومعها الشجاع علي بن سلار أمير حجاج بيت المقدس، والصمصام إسماعيل أمير حاج الشام، فجاء محمد بن ياقوت أمير الحج العراقي، فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيرا بها، ومعه خاتون أم جلال الدين.فبعثت ربيعة خاتون مع ابن السلار إلى قتادة تقول له: ما ذنب الناس؟ قد قتلت القاتل وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين، واستحللت الدماء والمال في الشهر الحرام في الحرم، وقالت له: قد عرفت من نحن، والله لئن لم تنته لأفعلن وأفعلن؛ فجاء إليه ابن السلار فخوفه وهدده، وقال: ارجع عن هذا وإلا قصدك الخليفة من العراق، ونحن من الشام؛ فكف عنهم وطلب مائة ألف دينار، فجمعوا له ثلاثين ألفا من أمير الحاج العراقي، ومن خاتون أم جلال الدين، وأقام الناس ثلاث أيام حول خيمة ربيعة خاتون، بين قتيل وجريح ومسلوب وجائع وعريان. وقال قتادة: ما فعل هذا إلا الخليفة، ولئن عاد يحج أحد من بغداد لأقتلن الجميع. ويقال: إنه أخذ من المال والمتاع وغيره ما قيمته ألف ألف دينار، وأذن الناس في الدخول إلى مكة، فدخل الأصحاء

سُلْطَان مَكَّة. توفي فِي أخر جُمَادَى الْآخِرَة بِمَكَّة سنة ٦١٧هـ. عَن تسعين سنة وَله شعر جيد وَقدم مصر غير مرّة وَمَعَهُ أَخُوهُ أَبُو مُوسَى عِيسَى، وولد وتربي بينبع. كان شيخا عارفا منصفا، نقمة على عبيد مكّة المفسدين، وكان الحاجّ في أيّامه في أمان على أموالهم ونفوسهم، وكان يؤذّن في الحرم ب «حيّ على خير العمل» على قاعدة الرافضة، وما كان يلتفت إلى أحد من خلق الله تعالى، ولا وطئ بساط الخليفة ولا غيره، وكان يحمل إليه من بغداد في كلّ سنة الذهب والخلع وهو بداره في مكّة، وهو يقول: أنا أحقّ بالخلافة من الناصر لدين الله، ولم يرتكب كبيرة فيما قيل. قلت (أي ابن تغري بردي): وأىّ كبيرة أعظم من الرّفض وسبّ الصحابة! - رضي الله عنهم-. المقريزي: السلوك ١/ ٣٢٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٩-٢٥٠.

(١) أم جلال الدين: هو جلال الدين حسن بن أعلي محمد، صاحب قلعة ألموت، أظهر شعائر الإسلام سنة ٦٠٨هـ، وكتب به إلى جميع قلاع الإسماعيلية بالعجم والشام، فأقيمت فيها شعائر الإسلام. وأرسل رسولا إلي بغداد يخبر الخليفة بدخول قومه في الإسلام وإنهم قد تبرأوا من الباطنية وبنوا المساجد والجوامع، وأقيمت الجمعة والجماعات عندهم، وصاموا رمضان وصلّوا التراويح ففرح الخليفة بذلك. وقدمت الخاتون أمّ جلال الدين حاجّة، واحتفل بها الخليفة، وجهّز لها ما يليق بها. أبو الفداء: المصدر السابق ٣/ ١١٤؛ تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٢٨؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق ٦/ ٢٠٣.

(٢) الزَّاهِر: هو وادي الزاهر بين عمرة التنعيم والمسجد الحرام يبعد حوالي ميلين من مكة. ويعرف أيضا بباب الزاهر وبباب العمرة وهو إلى جهة المغرب وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة، ومنه يتوجه إلى التنعيم. ابن جبير (محمد بن أحمد): رحلة ابن جبير ١/ ٧٨- ٧٩، دار ومكتبة الهلال، بيروت؛ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ١/ ٣٧٠ و ٣٨٣، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ؛ عاتق بن غيث: معجم الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ ١/ ٢٣٤؛ محمد بن محمد حسن شُرَّاب: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ١/ ٢١٣.

والأقوياء، فطافوا وأي طواف، ومعظم الناس لم يدخلوا، ورحلوا إلى المدينة، ودخلوا بغداد وهم يعانون من الفقر والذل والهوان، ولم ينتطح فيها عنزان ...[١]

وأما قول أبي شامة: ولم ينتطح فيها عنزان، فسببه أن قتادة أرسل ولده، راجحا ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م[٢] وجماعة من أصحابه إلى الخليفة ببغداد؛ فدخلوا ومعهم السيوف مسلولة، والأكفان، فقبلوا العتبة، واعتذروا مما جرى على الحاج، فقبل عذرهم.[٣]

وذكر ابن الأثير أنه في السَّنَةِ المذكورة نُهِبَ الْحَاجُّ بِمِنًى، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ بَاطِنِيًّا وَثَبَ عَلَى بَعْضِ أَهْلِ الْأَمِيرِ قَتَادَةَ، صَاحِبِ مَكَّةَ، فَقَتَلَهُ بِمِنًى ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ قَتَادَةُ، فَلَمَّا سَمِعَ قَتَادَةُ ذَلِكَ جَمَعَ الْأَشْرَافَ وَالْعَرَبَ وَالْعَبِيدَ وَأَهْلَ مَكَّةَ، وَقَصَدُوا الْحَاجَّ، وَنَزَلُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَبَلِ، وَرَمَوْهُمْ بِالْحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَكَانَ أَمِيرُ الْحَاجِّ وَلَدَ الْأَمِيرِ يَاقُوتَ الْمُقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَهُوَ صَبِيٌّ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَفْعَلُ، فَخَافَ وَتَحَيَّرَ وَتَمَكَّنَ أَمِيرُ مَكَّةَ مَنْ نَهْبِ الْحَاجِّ، فَنَهَبُوا مِنْهُمْ مَنْ كَانَ فِي الْأَطْرَافِ، وَأَقَامُوا عَلَى حَالِهِمْ إِلَى اللَّيْلِ. فَاضْطَرَبَ الْحَاجُّ، وَبَاتُوا بِأَسْوَأِ حَالٍ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ مِنَ الْقَتْلِ وَالنَّهْبِ. فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ لِأَمِيرِ الْحَاجِّ لِيَنْتَقِلَ بِالْحُجَّاجِ إِلَى مَنْزِلَةِ حُجَّاجِ الشَّامِ، فَأَمَرَ بِالرَّحِيلِ، فَرَفَعُوا أَثْقَالَهُمْ عَلَى الْجِمَالِ وَاشْتَغَلَ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَطَمِعَ الْعَدُوُّ فِيهِمْ. وَتَمَكَّنَ مِنَ النَّهْبِ كَيْفَ أَرَادَ، فَكَانَتِ الْجِمَالُ تُؤْخَذُ بِأَحْمَالِهَا، وَالْتَحَقَ مَنْ سَلِمَ بِحُجَّاجِ الشَّامِ فَاجْتَمَعُوا بِهِمْ، ثُمَّ رَحَلُوا إِلَى الزَّاهِرِ، وَمُنِعُوا مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ، ثُمَّ أُذِنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ فَدَخَلُوهَا وَتَمَّمُوا حَجَّهُمْ وَعَادُوا. ثُمَّ أَرْسَلَ قَتَادَةُ وَلَدَهُ وَجَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى بَغْدَادَ، فَدَخَلُوهَا وَمَعَهُمُ السُّيُوفُ مَسْلُولَةً وَالْأَكْفَانُ، فَقَبَّلُوا الْعَتَبَةَ، وَاعْتَذَرُوا مِمَّا جَرَى عَلَى الْحُجَّاجِ.[٤] وهذا يخالف ما ذكره أبو شامة، فإن كلامه يقتضي أن العراقيين لما رحلوا من منى نزلوا على الشامين بالزاهر.

وإذا كان قد وقع خلاف بين ابن الأثير وأبي شامة حول المكان الذي كان ينزل فيه حجاج الشام، فقد اختلف أيضا حول الشخص الذي قتل ابن عم الأمير قتادة فقد ذكر ابن سعيد المغربي أن القاتل للشريف بمنى شخص مجهول، فظن الأشراف أنه خشيش[٥] فقتلوه. وذكر قتلهم للحجيج العراقيين ونهبهم لهم بمنى، ثم قال: وفعلوا مثل

---

(١) أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل): تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل علي الروضتين ص ١٢٠-١٢١، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين ، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت لبنان؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٣/ ٣٥-٣٦؛ الفاسي (محمد بن أحمد): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢/٢٨٠، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م؛ الذهبي : تاريخ الإسلام ٤٣/ ٣٥- ٣٦

(٢) الأمير راجح: هو أمير مكة رَاجِح بن قَتَادَة بن إِدْرِيس بن مطاعن بن عبد الْكَرِيم بن مُوسَى بن عِيسَى بن سُلَيْمَان بن عبد الله بن مُوسَى الجون بن عبد الله الْكَامِل بن الْحسن بن عَليّ بن أبي طَالب صَاحب مَكَّة. ولي إمرتها غير مرة، وجرى له في ذلك أمور ومنازعة مع أخيه حسن، بعد موت والده، وحصل بينهما وقائع وحوادث إلى أن مات راجح المذكور في سنة أربع وخمسين وستمائة. الصفدي: الوافي بالوفيات ١٤/ ٤٤٢؛ ابن تغري بردي (يوسف بن عبد الله): المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ٥/ ٣٣٩، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٣) الفاسي: المصدر السابق ٢/٢٨٠- ٢٨١

(٤) الكامل ١٠/ ٢٨١-٢٨٢.

(٥) الخشيش: هو الدخيل بلغة العامة في الحجاز، وفي العقد الثمين ٧/ ٤٩: "أن الأشراف قتلوا القاتل بمنى وظنوا أنه حشيش" والحشيش هو من ينتسب إلى الطائفة الإسماعيلية الذين نشأوا في قلعة "الموت". الفاسي: المصدر نفسه ٢/ ٢٨١ هـ٣.

ذلك بمن كان في مكة من الحجاج، وذكر ما سبق في أخذ أهل مكة ثلاثين ألف دينار من الحجاج العراقيين على تمكينهم من دخول مكة، لطواف الإفاضة. وذكر ابن محفوظ هذه الحادثة، وذكر فيها أن القاتل للشريف بمنى خشيش، وأن المقتول يسمى هارون، ويكنى أبا عزيز، ثم قال: وخرج من كان بمكة من نواب الخليفة ومن المجاورين، مثقلين من مكة إلي سائر الأقطار.(١)

وأشار المقريزي إلي أن القاتل كان من طائفة الحشيشية، وأن المقتول شخصا من الأشراف اسمه عزيز، وأن الخليفة غفر لقتادة ما بدر منه فقال: "وفيهَا أَعنِي سنة ثَمَان وسِتمِائَة كَانَت فتْنَة بَين حَاج الْعرَاق وَبَين أهل مَكَّة سَببهَا أن حشيشيا جَاءَ لقتل الشريف قَتَادَة فَقتل شريفا اسْمه أَبُو هَارُون عَزِيز ظنا مِنْهُ أَنه قَتَادَة فثارت الْفِتْنَة وَانْهَزَمَ أَمِير الْحَاج وَنهب الْحَاج عَن أَخّره وفر من مَكَّة من بِمَكَّة من نواب الْخَلِيفَة وَمن المجاورين فَبعث الشريف قَتَادَة وَلَده رَاجِح بن قَتَادَة إِلَى الْخَلِيفَة يعْتَذر لَهُ عَمَّا جرى فَقبل عذره وعفى عَنهُ.(٢)

ولكن إذا كان الخليفة العباسي الناصر لدين الله ٥٥٣-٦٢٢هـ = ١١٥٨-١٢٢٥م قد قبل عذر قتادة في الظاهر إلا إنه كان في الحقيقة لم يصفح عنه وأراد أن يستدرجه إلي بغداد ويلقي القبض عليه. فقد أرسل إلى قتادة في سنة ٦٠٩هـ مع الركب العراقي مالاً وخلعاً، ولم يظهر له إنكار فيما تقدم من نهب الحاج؛ ولكنه استدرج باستدعائه بالحضور إلى بغداد فلم يفعل. وقال في ذلك أبياتا مشهورة.(٣)

ويوضح العصامي الخطة التي رسمها الخليفة الناصر لاستدراج قتادة والانتقام منه لما فعله، ولكن الأخير تنبه لما يحاك ضده ولم يذهب إلى بغداد وإنما أرسل ابنه راجحا بناء على طلب مبعوث الخليفة الذي أشار عليه بإرسال ولده ليعتذر عما فعل أبوه. وفي سنة تسع وسِتمِائَة وصل من قبل الْخَلِيفَة النَّاصِر العباسي إِلَى قَتَادَة مَعَ الركب الْعِرَاقِيّ مَالٌ وخلعة وَكِسْوَة وَلم يظْهر لَهُ الْخَلِيفَة إنكاراً على مَا تقدم من نهب الْحَاج وَجعل أَمِير الْحَاج يستدرجه ويخدعه بِأَنَّهُ لم يَصح عِنْد الدِّيوَان الْعَزِيز أَن الشرفاء وأتباعهم نهبوا أَطْرَاف الْحَاج وَلَوْلَا تدخله لهلكوا. وأشار عليه بأن الوزير ينصحه بالمجيء إلي بغداد وبتقبيل العتبة. فَقَالَ الشريف قَتَادَة: سَأَنْظُرُ فِي ذَلِك ثمَّ تسمع الْجَواب وَاجْتمعَ ببني عَمه الْأَشْرَاف وعرفهم أَن ذَلِك اسْتِدْرَاج لَهُم وَله حَتَّى يتَمَكَّن من الْجَمِيع ثمَّ قَالَ لَهُم: يَا بني الزهراء عزكم إِلَى آخر الدَّهْر مجاورة هَذِه البنية والاجتماع فِي بطائحها فَلَا يرغبونكم بالأموال وَالْعدة وَالْعدَد وَقد عصمكم الله وعصم أَرْضكُم بانقطاعها وَإِنَّهَا لَا تبلغ أَلا بشق الْأَنْفس ثمَّ عَاد أَبُو عَزِيز قَتَادَة إِلَى أَمِير الركب الْعِرَاقِيّ وَقَالَ لَهُ: اسْمَع الْجَواب ثمَّ أنْشدهُ عدة أبيات. فَقَالَ لَهُ أَمِير الركب: يَا شريف حاشا أَن أحمل مثل هَذِه الأبيات مِنْك وَأَنت ابْن بنت رَسُول الله والخليفة ابْن عمك وَأَنا مَمْلُوك تركي لَا أعلم من الْأُمُور الَّتِي فِي الْكتب مَا علمتَ وَلَكِنِّي قد رَأَيْت أَن هَذَا من سرف الْعَرَب الَّذين يسكنون الْبَوَادِي وترغاب قطاع الطَّرِيق وَالله لَا حملت هَذِه الأبيات عَنْك فَأَكُون قد جنيت على بَيت الله وَبني بنت نبيه وَوَاللَّه لَو وصل إِلَيْهِ مَا ذكرت لجعل سَائِر الْوُجُوه إِلَيْك وَلَكِن لي رَأْي أعرضه عَلَيْك فأصغ إِلَيْهِ أَبُو عَزِيز وَعلم أَنه رجل عَاقل قَالَ الرَّأْي أَن ترسل أحد أولادك من لَا تهتم لَهُ إِن جرى عَلَيْهِ مَا

---

(١) الفاسي: المصدر السابق ٢/ ٢٨١.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٢٩٤.

(٣) الفاسي: المصدر نفسه ٢/ ٢٨١.

تتوقعه ومعاذ الله أَن يجْرِي عَلَيْهِ إلا مَا تحبه وَترسل مَعَه جمَاعَة من ذَوي الْأَسْنَان والهيئات فيدخلوا مَدِينَة السَّلَام وَفِي أَيْديهم أكفانهم منشورة وَسُيُوفهمْ مسلولة ويقبلون العتبة ويتوسلون بالنبي وبصفح أَمِير الْمُؤمنِينَ وسترى مَا يكون من الْخَيْر لَك وَلِلنَّاسِ، فشكره قَتَادَة وَوجه صحبته وَلَده رَاجح وأشياخ الشرفاء ودخلوا بَغْدَاد على تِلْكَ الْهَيْئَة الَّتِي ذكرهَا وهم يضجون ويتضرعون ويبكون وَالنَّاس يَبْكُونَ لبكائهم فَاجْتمع الْخلق كَأَنَّهُ الْمَحْشَر ومالوا إِلَى بَاب النّوبَة من أَبْوَاب مَدِينَة الْخَلِيفَة فقبلوا هُنَالك العتبة وَبلغ الْخَبر النَّاصِر العباسي فَعَفَا عَنْهُم وَعَن مرسلهم وأنزلوهم فِي الديار الواسعة وأكرموهم، وعادوا إِلَى أبي عَزِيز قتادة بِمَا أحب فَكَانَ بعد ذَلِك يَقُول: لعن الله أول رأي عِنْد الْغَضَب وَلَا عدمنا عَاقِلا ناصحاً يثبتنا عِنْده.[١]

مدرسة ربيعة خاتون

حرص الأيوبيون رجالا ونساء علي نشر المذهب السني في كل مكان خضع لسيطرتهم سواء في مصر أو الشام أو الجزيرة أو الحجاز وتجلى ذلك في بناء العديد من المدارس في ربوع البلاد المذكورة ، ويهمنا هنا الإشارة إلى المدرسة التي شيدتها ربيعة خاتون بمدينة دمشق التي قدمت إليها بعد وفاة زوجها مظفر الدين صاحب إربل وهي المعروفة بالمدرسة الصاحبية.

وقد أشارت علي ربيعة خاتون ببناء هذه المدرسة امرأة تسمى العالمة أَمَةُ اللّطيف بنت النّاصح، فقد روى النويري أنه بعد قدوم ربيعة خاتون دمشق أقامت بها، وخدمتها أمة اللطيف العالمة بنت الناصح بن الحنبلى ٦٥٣هـ=١٢٥٥م وحصل لها من جهتها الأموال الكثيرة. فلما ماتت ربيعة خاتون، لقيت أمة اللطيف شدائد كثيرة، وصودرت وطولبت بالأموال، واعتقلت بقلعة دمشق ثلاث سنين. ثم أطلقت من الحبس وتزوجت بالملك الأشرف ٦٢٧-٦٦٢هـ=١٢٣٠-١٢٦٣م[٢] -ابن صاحب حمص[٣]- وتوجه بها إلى الرّحبة. [٤] فتوفيت فى سنة ثلاث وخمسين وستمائة. وظهر لها من الأموال والذخائر ما قيمته ستمائة ألف درهم- غير الأملاك والأوقاف.[٥]

---

(١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٤/ ٢٢٦-٦٢٨، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

(٢) الملك الأشرف: هو الملك الأشرف موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي، عاد من خدمة الملك الظاهر بيبرس إلى حمص سنة ٦٦١هـ، فمرض واشتد به المرض، وتوفي إلى رحمة الله تعالى في السنة المذكورة، وأرسل الملك الظاهر وتسلم حمص في ذي القعدة من هذه السنة، وهو آخر من ملك حمص من بيت شيركوه. اليونيني (موسى بن محمد): ذيل مرآة الزمان ٢/ ٢٣٠، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م؛ أبو الفدا: المصدر السابق ٣/

(٣) حمص: مدينة سوريّة، تعتبر الثالثة في الجمهورية السورية من حيث عدد السكان، بعد دمشق وحلب، تقع على نهر العاصي في منطقة زراعية خصبة هي سهل الغاب. ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٤) الرحبة: تقع قلعة الرحبة بمحيط مدينة الميادين علي نهر الفرات في سوريا وعرفت حديثا باسم الميادين واسمها القديم هو الرحبة. ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٥) نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٩/ ٣١٨.

ويحدثنا الذهبي عن موقع المدرسة ودور أمة اللطيف في توجيه ربيعة خاتون لبنائها، والأموال التي تحصلت عليها نتيجة أنها حظيت بثقة ربيعة خاتون فيقول:" فلمّا مات (زوجها) قدِمت إلى دمشق، وخدمتها العالمة أَمَةُ اللّطيف بنت النّاصح ابن الحنبليّ، فأحبّتها وحصل لَهَا من جهتها أموال عظيمة، وأشارت عليها ببناء المدرسة بسفح قاسيون، فَبَنَتْها ووَقَفَتْها عَلَى النّاصح والحنابلة".(١)

وقد أشار بعضهم إلي أن المدرسة شيدت بجبل الصالحية بسفح قاسيون من جهة الشرق فيقول ابن الوردي: "وَبنت مدرسة حنبلية بجبل الصالحية".(٢) ويقول النعيمي: "بسفح قاسيون من الشرق أنشأتها ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب بجبل الصالحية على الحنابلة".(٣) ويقول محمد كرد علي: "الصاحبية بسفح قاسيون من شرق الصالحية. إنشاء ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب أخت صلاح الدين وست الشام، ودفنت في فنائها وجعلت اليوم مكتباً ابتدائياً للذكور".(٤)

وبعد أن ماتت أمة اللطيف الفاضلة صاحبة التصانيف سنة ٦٥٣هـ- التي أرشدت ربيعة خاتون إلي بناء المدرسة ووقفها على الحنابلة، كما وقفت أَمَةُ اللَّطِيفِ عَلَى الْحَنَابِلَةِ مَدْرَسَةً أُخْرَى شَرْقِيَّ الرِّبَاطِ النَّاصِرِيِّ(٥) غربي سفح قاسيون تحت جامع الأفرم(٦)

- اسْتولى الصاحب معِين الدّين بن الشَّيْخ ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م(٧) على ثروتها فَلم يمتع وعاش بعْدهَا أَيَّامًا قَلَائِل.(٨)

---

(١) تاريخ الإسلام ٤٧/ ١٦٢؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق ٦/ ٣٥٣.

(٢) تاريخ ابن الوردي٢/ ١٧١، ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار٢٧/ ٣٢٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية١٢/ ٣١٧.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٦٢.

(٤) خطط الشام ٦/ ٩٧، الناشر: مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٥) الرِّبَاطِ النَّاصِرِيِّ: أمرَ بِعِمَارَتِهِ بسفح قاسيون بدمسق صاحب الشام الْمَلِكُ النَّاصِرُ صَلَاحُ الدِّين يُوسُفُ بْنُ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ غِيَاثِ الدِّينِ غَازِيِّ بْنِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّين يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ شَادِي في سنة ٦٥٤هـ. ابن كثير: المصدر السابق ١٣/ ٢٢٥.

(٦) جامع الأفرم: فِي مُسْتَهَلِّ ذِي الْقَعْدَةِ سنة ٧٠٦هـ كَمَلَ بِنَاءُ هذا الْجَامِعِ الذي ابتناه وَعَمَّرَهُ الْأَمِيرُ جَمَالُ الدِّينِ الْأَفْرَمُ نَائِبُ السَّلْطَنَةِ عند عند الرباط الناصري غربي الصالحية، ورتب فيه خطيباً يخطب يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ الْقَاضِي شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الْعِزِّ الْحَنَفِيُّ، وَحَضَرَ نَائِبُ السَّلْطَنَةِ وَالْقُضَاةُ وَشُكِرَتْ خُطْبَةُ الْخَطِيبِ بِهِ، وَمَدَّ الصَّاحِبُ شِهَابُ الدين الحنفي سماطا بعد صلاة بِالْجَامِعِ الْمَذْكُورِ وَهُوَ الَّذِي كَانَ السَّاعِي فِي عِمَارَتِهِ، وَالْمُسْتَحِثَّ عَلَيْهَا، فَجَاءَ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ والحسن. وَقد أصبح الْيَوْم لَا أثر لَهُ وَكَانَ تجاه الرِّبَاط الناصري وكل مِنْهَا يسلم على الآخر سَلام الْوَدَاع. ابن كثير: المصدر نفسه ١٤/ ٤٧، عبد القادر بن بدران (عبد القادر بن أحمد): منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ١/ ٣٨٩، المحقق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥م.

(٧) معين الدين بن الشيخ: هو مُعِينُ الدِّينِ الْحَسَنُ بْنُ شَيْخِ الشُّيُوخِ وَزِيرُ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ، أَرْسَلَهُ إِلَى دِمَشْقَ فَحَاصَرَهَا مَعَ الْخُوَارَزْمِيَّةِ أَوَّلَ مَرَّةٍ حَتَّى أَخَذَهَا مِنْ يَدِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ، وَأَقَامَ بِهَا نَائِبًا من جهة الصالح أيوب، ثم مالأ الْخُوَارَزْمِيَّةُ مَعَ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ فَحَصَرُوهُ بِدِمَشْقَ، ثم كانت وفاته في العشر الأخر مِنْ رَمَضَانَ سنة ٦٤٣هـ عَنْ سِتٍّ وَخَمْسِينَ سَنَةً، فَكَانَتْ مُدَّةُ وِلَايَتِهِ بِدِمَشْقَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ونصف. وَصُلِّيَ عَلَيْهِ بِجَامِعِ دِمَشْقَ، وَدُفِنَ بِقَاسِيُونَ إِلَى جَانِبِ أَخِيهِ عِمَادِ الدِّينِ. ابن كثير: المصدر السابق ١٣/ ١٩٩.

(٨) ابن كثير: المصدر نفسه ١٣/ ١٧٠، النعيمي: المصدر السابق ٢/ ٦٣، ٨٧.

وفيما يتعلق بتاريخ افتتاح هذه المدرسة وبدء التدريس بها فقد كان ذلك في رجب سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، وكان يوما مشهودا، حيث حَضَرَت الواقِفَةُ من وراء السّتر وشهدت مراسم الافتتاح[١] ويقول ابن كثير في أحداث سنة ٦٢٨هـ: "وَفِيهَا دَرَّسَ الناصح ابن الحنبلي بالصالحية بسفح قاسيون التي أنشأتها الخاتون ربيعة".[٢] وأشار إلى ذلك ذلك أيضا ابن رجب الحنبلي فقال: "ثُمَّ بنت لَهُ الصاحبة ربيعة خاتون مدرسة بالجبل وَهِيَ المعروفة بالصاحبية. وكَانَ يوما مشهودا. وحضرت الواقفة من وراء ستر".[٣]

أما عن أول وأشهر من تولى التدريس بالمدرسة الصّاحِبيَّة –أو مدرسة ربيعة خاتون– فهو الْفَقِيه الْوَاعِظ نَاصح الدّين أَبُو الْفرج عبد الرَّحْمَن بن نجم بن عبد الْوَهَّاب بن عبد الْوَاحِد الْأَنْصَارِيّ الشيرازى ٥٥٤–٦٣٤هـ = ١١٥٩–١٢٣٦م، الذي سمع من وَالِده وَالْقَاضِي أبي الْفضل مُحَمَّد بن الشهرزورى ٤٩٢–٥٧٢هـ = ١٠٩٩–١١٧٦م[٤] وعَلي بن نجا ٥٠٨–٥٩٩هـ = ١١١٥–١٢٠٣م[٥] وَغَيرهم، ورحل إِلَى الْبِلَاد وَسمع بِبَغْدَاد وأصبهان والموصل من من جمَاعَة وَدخل بلادا كَثِيرَة وَاجْتمعَ بفضلائها، واشتغل بالوعظ وبرع فِيهِ، وَحضر فتح بَيت الْمُقَدّس مَعَ السُّلْطَان صَلَاح الدّين، ودرس بعدة مدارس منها المدرسة الحنبلية مدرسة جدّه شرف الإسلام عبد الوهاب بن عبد الواحد

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٤٥.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ١٢٨.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٤٢٨، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

(٤) أبو الْفضل مُحَمَّد بن الشهرزورى: هو أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي أحمد القاسم الشهرزوري الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، تفقه ببغداد على أسعد الميهني، وسمع الحديث من أبي البركات محمد بن محمد بن خميس الموصلي، وتولى القضاء بالموصل وبنى بها مدرسة للشافعية، ورباطا بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يتردد في الرسائل منها إلى بغداد عن الأتابك عماد الدين زنكي. وكان فقيها أديبا شاعرا كاتبا ظريفا فكه المجالسة، وقف أوقافا كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق، وكان عظيم الرياسة خبيرا بتدبير الملك، لم يكن في بيته مثله ولا نال أحد منهم ما ناله من المناصب مع كثرة رؤساء بيته. وكانت ولادته سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، بالموصل. وتوفي يوم الخميس سادس المحرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل قاسيون رحمه الله تعالى، وكان عمره حين توفي ثمانين سنة وأشهرا. ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٤١–٢٤٥.

(٥) علي بن نجا: هو زين الدّين أبو الْحَسَن عليّ بْن إبراهيم بن نجا بن غنائم الْأَنْصَارِيّ الدَّمشقيّ، الحنبليّ، الواعظ المعروف بابن نُجَيَّة، نُجَيَّة، نزيل مصر. ولد بدمشق سنة ثمان وخمسمائة. وحدَّث ببغداد، ودمشق، ومصر، الإسكندريَّة. وكتب عَنْهُ أبو طاهر السِّلَفيّ مع تقدُّمه وجلالته شيئا حكاه فِي «معجم شيوخ بغداد». ووعظ بجامع القرافة مدَّة طويلة. وكان صدْرًا محتشما، نبيلا، ذا جاهٍ ورئاسة، ودنيا واسعة، وتقدُّم عند الدّولة. كان كبير القدْر، معظَّمًا عند صلاح الدّين، وهو الّذي نَمَّ على الفقيه عُمارَة اليَمَنيّ وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلْب الدّولة، فشنقهم صلاح الدّين.وكان صلاح الدّين يكاتبه ويحضره مجلسه. واقتنى ابن نَجِيَّة أموالا عظيمة، وتنعَّم تنعُّمًا زائدا، بحيث أنّه كان فِي داره عشرون جارية للفراش تساوي كلُّ واحدةٍ ألف دينار وأكثر. وكان يُعمل له من الأطعمة ما لا يعمل للملوك. وأعطاه الخلفاء والملوك أموالا عظيمة، ومع هَذَا مات فقيرا. كفّنه بعض أصحابه. الذهبي: المصدر السابق ٤٢/ ٣٩٨–٤٠٠ ابن العماد: شذرات الذهب ٦/ ٥٤٤–٥٥٥.

الحنبلي،[١] كما تولى التدريس أيضا بالمدرسة المشهورة المعروفة باسم المدرسة المسمارية[٢] مَعَ أسعد بن المنجا ٥١٩-٦٠٦هـ/ ١١٢٥-١٢٠٩م[٣] ثمَّ اشْتغل بهَا بَنو المنجا بِحكم أَن نظرها لَهُم، ثمَّ بنيت لَهُ الصاحبة ربيعَة خاتون مدرسة بِالْجَبَلِ تسمى الصاحبة فدرس بهَا وَكَانَ يَوْمًا مشهودا وَحَضَرت الواقفة من وَرَاء ستر وانتهت إِلَيْهِ رئاسة المذهب الحنبلي بَعْد الشيخ موفق الدين بن قدامة ٥٤١-٦٢٠هـ/ ١١٤٧-١٢٢٣م[٤] وَكَانَ يساميه فِي

---

(١) شرف الإسلام الحنبلي: هو عبد الوهاب بن عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي، ثم الدمشقي، المعروف بابن الحنبلي الفقيه الواعظ المفسر، شيخ الحنابلة بالشام في وقته. توفي والده وهو صغير فاشتغل بنفسه، وتفقه وبرع، وناظر وأفتى، ودرس الفقه والتفسير ووعظ، واشتغل عليه خلق كثير. وكان فقيها بارعا، وواعظا فصيحا، وصدرا معظما، ذا حُرمةٍ وحشمة وسؤددٍ ورئاسة، ووجاهةٍ وَجَلالة وهيبة. ولما ورد الفرنج إلى دمشق سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، أرسله صاحب دمشق إلى الخليفة المسترشد ببغداد ليستنجدهم على الفرنج، فخلع عليه ووَعَده بالإنجاد. وكان له بجامع دمشق مجلس يعقده للوعظ، وقيل: إنه منع منه بسبب الفتن.ولشرف الإسلام تصانيف في الفقه والأصول، منها "المنتخب في الفقه" في مجلدين و "المفردات"، و "البرهان في أصول الدين" ورسالته في الرد على الأشعرية. وبني بدمشق مدرسة داخل باب الفراديس، وهي المعروفة بالحنبلية. توفي رحمه الله في ليلة الأحد سابع عشر صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة.ودفن عند والده بمقابر الشهداء من مقابر الباب الصغير. وكان يوم دفنه مشهودا من كثرة المشيعين له والباكين حوله، والمؤبنين لأفعاله والمتأسفين عليه. رحمه الله تعالى. ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/ ٤٤٦-٤٥٤.

(٢) المدرسة المسمارية: قبلي القيمرية الكبرى داخل دمشق بالقرب من مئذنة فيروز، واقفها الشيخ الحسن ابن مسمار الهلالي الحوراني المقرئ التاجر، قرأ بالروايات وسمع الحديث ورحل إلى بغداد وسمع بها من أبي القاسم بن حصين، وكان يصلي بجامع دمشق بحلقة الحنابلة صلاة التراويح ويقرأ فيها بعدة روايات يخلطها ويردد الحرف المختلف فيه فأنكر ذلك عليه وقالوا هذا مذهب ترتيب النظم في القرآن الكريم، وكان مقترا على نفسه قيل: أنه أوصى عند موته بإخراج جملة من زكاة ماله اجتمعت عليه من سنين عديدة على مدة حتى أمر بإخراجها، توفي رحمه الله يوم الأحد سادس شهر رمضان سنة ست وأربعين وخمسمائة. النعيمي: المصدر السابق ٢/ ٨٩.

(٣) أسعد بن المنجا: وقيل أبي المنجا، بن بركات، وقيل أبي البركات بن المؤمل، التنوخي المعري الأصل، الدمشقي المولد والمنشأ، الحنبلي القاضي، ولي قضاء حرّان، وذكر ولده عمر بن أسعد، أن اسمه أسعد بن المنجا بن بركات بن المؤمل. قرأ الفقه بدمشق على شرف الإسلام عبد الوهاب بن عبد الواحد الحنبلي، ثم سافر إلى بغداد وتفقه بها على أحمد الحربي، وقرأ على الشيخ عبد القادر بن صالح الجيلي، وسمع الحديث بدمشق من أبي القاسم نصر بن أحمد السوسي، وببغداد من أبي منصور أنوشتكين الرضواني، والشريف النقيب أبي جعفر احمد بن محمد المكي العباسي، وغيرهما. ولما عاد إلى دمشق بني له تاجر مدرسة بدمشق ووقفها عليه، وتولى القضاء والخطابة بحرّان يوم الأربعاء ثامن وعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وخمسمائة. وخطب على منبر حرّان، سمعه بعضهم يخطب ويدعو للإمام المستضيء.صنف كتاب النهاية في شرح الهداية عشرين مجلدا، جمع فيه المذاهب وأدلتها، واختصر كتاب الهداية، وكان له شعر حسن. وكان مولده – يعني أسعد بن المنجا- بدمشق سنة عشرين وخمسمائة، وقيل: سنة تسع عشر وخمسمائة، ومات بدمشق سنة خمس وستمائة، وقيل توفي في شهور سنة ست وستمائة بدمشق.وقيل مات بعد أن عمي مدة عاشها في بيته، في يوم الخميس ثاني عشري شهر ربيع الأول سنة ست وستمائة. وقيل بل مات في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. ابن المستوفي الأربلي: تاريخ إربل ٢/ ٤٤١٦؛ ابن العديم: بغية الطلب ٤/١٥٨٠-١٥٨٤؛ النعيمي: المصدر نفسه ٢/ ٨٩-٩٠.

(٤) الشيخ موفق الدين: هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بْن مقدام بْن نصر بْن عَبْد اللَّهِ المقدسي، ثُمَّ الدمشقي، الصالحي الفقيه، الزاهد الإمام، شيخ الإسْلام، وأحد الأعلام، ولد فِي شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة بجماعيل، وقدم دمشق مَعَ أهله وَلَهُ عشر سنين، فقرأ الْقُرْآن.ورحل إِلَى بغداد ومكة والموصل. ثُمَّ رجع إِلَى دمشق واشتغل بتصنيف كتاب "المغني" فِي شرح الخرقي، فبلغ الأمل فِي إتمامه، وَهُوَ كتاب بليغ فِي المذهب الحنبلى. وَلَمْ يكن فِي زمانه أزهد ولا أورع منه، وَكَانَ كثير الحياء، عزوفا عَنِ الدنيا وأهلها هينا لينا متواضعا، محبا للمساكين حسن الأخلاق، جوادا سخيا. من رآه كأنه رأى بَعْض الصَّحَابَة. وكأنما النور يخرج من وجهه، كثير العبادة، يقرأ كُل يَوْم وليلة سُبعاً من الْقُرْآن، ولا يصلِّي ركعتي السنة فِي الغالب إلاَّ فِي بيته، اتباعا للسنة. وَكَانَ لا يناظر أحداً

حياته. حيث قَالَ ناصح الدين: كنت قدمت من أربل سنة وفاة الشيخ الموفق، فَقَالَ لي: قَدْ سررت بقدومك، مخافة أَن أموت وأنت غائب، فيقع وهن فِي المذهب، وخُلْفٌ بَيْنَ أَصْحَابنا.وَقَدْ وقع مرات بَيْنَ الناصح والشيخ الموفق اخْتِلاف فِي فتوى فِي السماع المحدَث، أجاب فِيهَا الشيخ الموفق بإنكاره. فكتب الناصح بعده مَا مضمونه "الغناء كالشعر، فِيهِ مذموم وممدوح، فَمَا قصد بِهِ ترويح النفوس، وتفريج الهموم، وتفريغ القلوب لسماع موعظة، وتحريك لتذكرة: فلا بأس بِهِ. وَهُوَ حسن"، وذكر أحاديث فِي تغني جُوَيْرِيات الأنصار، وَفِي الغناء فِي الأعراس، وأحاديث فِي الحُداء".[1]

وللناصح رحمه اللَّه تَعَالَى تصانيف عدة، منها: كتاب "أسباب الْحَدِيث" فِي مجلدات عدة، وكتاب "الاستسعاد بمن لقيت من صالحي الْعِبَاد فِي البلاد"، وكتاب "الأنجاد فِي الجهاد" صنفه بحلب، وَقَالَ: لما فرغت من تصنيفه، رأيت فِي المنام كأني جالس، وإذا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَر بي، وبيني وبينه قدر ذراع، فَقَالَ: سلام عليكم، فرددت السَّلام، فلما استيقظت استبشرت، وقلت: أريد السَّلام عَلَيْهِ عِنْدَ حجرته، شكرا له، قال: فحججت ذَلِكَ العام. وللناصح خطب ومقامات، وكتاب "تاريخ الوعاظ" وأشياء فِي الوعظ. أما عن صفات الناصح الحنبلي فقد كَانَ فقيها، فاضلا، أديبا، حسن الأخلاق، حلو الْكَلام، جيد الإيراد، شهما مهيبا، صارما، واعظا، متواضعا متفننا، لَهُ تصانيف وَكَانَ رئيس المذهب فِي زمانه بدمشق، وَلَهُ بنيت المدرسة الَّتِي بالجبل للحنابلة، يَعْنِي مدرسة الصاحبية. قدم – يَعْنِي الناصح – مصر مرتين، ووعظ بها وحدث. وحصل لَهُ بها قبول، وحدث بدمشق، وبغداد وغيرهما، ووعظ ودرس. وهو من بَيْت الْحَدِيث والفقه ينتسب إلى إلى سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه[2]، وحدث

إلا وهو يتبسم، حَتَّى قَالَ بَعْض النَّاس: هَذَا الشيخ يقتل خصمه بتبسمه. صنف الشيخ الموفق التصانيف الكثيرة الحسنة فِي المذهب، فروعا وأصولا. وَفِي الْحَدِيث، واللغة، والزهد، والرقائق. وتصانيفه فِي أصول الدين فِي غاية الْحَسَن، أكثرها عَلَى طريقة أئمة المحدثين، مشحونة بالأحاديث والآثار، وبالأسانيد، كَمَا هِيَ طريقة الإمام أَحْمَد وأئمة الْحَدِيث. فمن تصانيفه فِي أصول الدين "البرهان فِي مسألة الْقُرْآن"، "كتاب القدر" "فضائل الصَّحَابَة". وأظنه "منهاج القاصدين فِي فضل الخلفاء الراشدين". ومن تصانيفه فِي الْحَدِيث "مختصر العلل "للخلال"، ومن تصانيفه فِي الفقه "المغنى فِي الفقه"، "الكافي فِي الفقه"، "المقنع فِي الفقه"، "مختصر الهداية". توفي رحمه الله يوم السبت يَوْم عيد الفطر سنة عشرين وستمائة بمنزله بدمشق وصلى عَلَيْهِ من الغد. وحمل إِلَى سفح قاسيون. فدفن بِهِ. وَكَانَ لَهُ جمع عظيم. امتد النَّاس فِي طرق الجبل فملؤوه. ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ٣/ ٢٨١-٢٩٧، برهان الدين ابن مفلح (إبراهيم بن محمد): المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ٢/ ١٥-٢٠، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(١) ابن رجب الحنبلي: المصدر نفسه ٣/ ٤٢٩.

(٢) سعد بن عبادة: هو بْن دليم بْن حارثة بْن أَبِي حزيمة وقيل: حارثة بْن حزام بْن حزيمة بْن ثعلبة بْن طريف بْن الخزرج بْن ساعدة بْن كعب بْن الخزرج الأنصاري الساعدي، يكنى أبا ثابت، وقيل: أبا قيس، والأول أصح. وكان نقيب بني ساعدة عند جميعهم، وشهد بدرًا عند بعضهم، وكان سيدًا جوادًا، وهو صاحب راية الأنصار في المشاهد كلها، وكان وجيهًا في الأنصار، ذا رياسة وسيادة، يعترف قومه له بها، وكان يحمل إِلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل يَوْم جفنة مملوءة ثريدًا ولحمًا، تدور معه حيث دار. وكان غيورًا شديد الغيرة، وَإياه أراد رَسُول اللَّهِ بقوله: "إن سعدًا لغيور، وَإِني لأغير من سعد، والله أغير منا، وغيرة اللَّه أن لا تؤتي محارمه". ولما توفي النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طمع في الخلافة، وجلس في سقيفة بني ساعدة ليبايع لنفسه، فجاء إليه أَبُو بكر، وعمر، فبايع الناس أبا بكر، وعدلوا عن سعد، فلم يبايع سعد أبا بكر ولا عمر، وسار إِلَى الشام، فأقام به بحوران إِلَى أن مات سنة خمس عشرة، وقيل: سنة أربع عشرة، وقيل: مات سنة إحدى عشرة. قيل: إن قبره بالمنيحة، قرية من غوطة دمشق، وهو مشهور يزار إِلَى اليوم. ابن الأثير

هو وأبوه وجده، وجد أَبِيهِ وجد جده. لقيته – يعني ابن رجب الحنبلي – بدمشق، وسمعت منه، وسمع منه بدمشق خلق كثير. وتَّوفي يَوْم السبت ثالث المحرم سنة أربع وثلاثين وستمائة بدمشق عَن ثَمَانِينَ سنة، وَكَانَ مهيبا صَارِمًا، لَهُ قبُول وَحُرْمَة، رَحمَه الله. ودفن من يومه بتربتهم بسفح قاسيون. رحمه الله تعالى.[١]

هذا وبعد وفاة ناصح الدين الحنبلي وكان أول من ألقي الدروس بالمدرسة الصاحبية، تولي من بعده ولده سيف الدين يحيى ٥٩٢-٦٧٢هـ/ ١١٩٦-١٢٧٤م[٢] إلى أن توفي، وناب عنه فيها صفي الدين خليل المراغي ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م[٣] حين توجه إلى بغداد، وابن أخيه شرف الدين محمد بن علي بن عبد الله ابن الشيخ ناصح الدين، وبقيت على أولاده وينوب عنهم فيها الشيخ العلامة الزاهد القدوة مسند الوقت تقي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الصالحي الحنبلي المعروف بابن الواسطي[٤] ٦٠٢-٦٩٢هـ/ ١٢٠٥-١٢٩٢م، الذي رحل إلى بغداد وسمع من مجموعة من العلماء، وتفقه وأتقن المذهب ودرس بالصاحبية، وكان فقيها زاهدا عابدا مخلصا قانتا صاحب جد وصدق وقول بالحق وله هيبة في النفوس تَّوفي رحمه الله في يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة سنة ٦٩٢هـ ودفن بالروضة. وقيل بل توفي يوم الجمعة آخر النهار رابع عشرين جمادى الآخرة عن تسعين سنة، وكان رجلا صالحا انفرد بعلو الرواية ولم يخلف بعده مثله ودرس بالصاحبية عشرين سنة وبغيرها من المدارس، وكان

(علي بن محمد): أسد الغابة في معرفة الصحابة ٢/ ٤٤١، المحقق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

(١) ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ٣/ ٤٣٦-٤٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ٢٩٧؛ برهان الدين ابن مفلح: المقصد الأرشد ٢/ ١١٣-١١٥؛ النعيمي: المصدر السابق ٢/ ٥٥؛ ابن ناصر الدين الدمشقي (محمد بن عبد الله): توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم ٢/ ٢٢٨، المحقق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م.

(٢) سيف الدين يحيى: هو بن النّاصح عبد الرحمن بن النّجم ابن الحنبلي، ولد سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وقيل سنة تسعين. وهو آخر من حدّث بالسماع عن الخشوعي، وسمع من حنبل، وابن طبرزد، والكندي، وغيرهم بدمشق، والموصل، وبغداد، وحدّث بمصر، ودمشق، وسمع منه العلّامة تاج الدّين الفزاري وأخوه الخطيب شرف الدّين، والحافظ الدّمياطي، وذكره في «معجمه». توفي سابع عشر شوال سنة ٦٧٢هـ. ابن ناصر الدين الدمشقي: المصدر السابق ٢/ ٢٢٨، ابن العماد: شذرات الذهب ٧/ ٥٩٢- ٥٩٣

(٣) الإمام صَفِيِّ الدِّينِ خَلِيلِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ صِدِّيقٍ الْمَرَاغِيِّ، توفي في شهر ذي القعدة سنة ٦٨٥هـ. السبكي (تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين): معجم الشيوخ ١/ ٥١٣، تخريج: شمس الدين أبي عبد الله ابن سعد الصالحي الحنبلي، تحقيق: بشار عواد، رائد يوسف العنبكي، مصطفى إسماعيل الأعظمي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٤؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق ٧/ ٣٧٠.

(٤) تَقِيّ الدّين الوَاسِطِيّ: هو الإمَام الْقدْوَة تَقِيّ الدّين أَبُو إِسْحَاق إِبْرَاهِيم بن عليّ بن أَحْمد بن فضل الوَاسِطِيّ الصَّالِحِي الْحَنْبَلِيّ مُسْند الشَّام، ولد سنة اثْنَتَيْنِ وست مائَة وَتُوفِّي سنة اثْنَتَيْنِ وَتِسْعين وست مائَة، وَكَانَ على كرسيه يقْرَأ الختمة فِي رَكْعَة، سمع من ابْن الحرستاني وَابْن ملاعب وَابْن الجلاجلي ومُوسَى بن عبد الْقَادِر وَابْن رَاجِح وَالشَّيْخ الْمُوفق وَابْن نعْمَة وَابْن الْبَنَّا وَطَائِفَة بِدِمَشْق. وَكَانَ فَقِيها عَارِفًا بِالْمذهبِ ودرس بمدرسة الصاحبة بِالْجَبَلِ وَولي مشيخة الحَدِيث فِي الظَّاهِرِيَّة وَكَانَ صَالحا عابداً أماراً بِالْمَعْرُوفِ مهيباً كثيرا لتلاوة الْقُرْآن خشن الْعَيْش؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ٦/ ٤٤-٤٥.

داعية إلى مذهب السلف والصدر الأول وكان يعود المرضى ويشهد الجنائز ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكان من خيار عباد الله تعالى.[١]

وقد درس بعده بالصاحبة الفقيه المحدث الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القوي بن بدران بن عبد الله المرداوي المقدسي. الذي طلب العلم وقرأ بنفسه وتفقه ودرس وأفتى وصنف، وولي تدريس الصاحبة بعد ابن الواسطي مدة فتخرج به جماعة وممن قرأ عليه العربية الشيخ تقي الدين ابن تَيْمِيَّة ٦٦١-٧٢٨هـ = ١٢٦٣-١٣٢٨م،[٢] وله تصانيف ،وحدث وروى عنه بعضهم، ثم توفي رحمه الله تعالى في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وستمائة ودفن بسفح قاسيون.[٣] ثم تولى التدريس من بعده قاضي القضاة الفقيه شهاب الدين أحمد بن حسن بن عبد الله بن عبد الواحد المقدسي ثم الصالحي، برع وتفقه في المذهب الحنبلي،وأفتى ودرس بالصاحبية، وبحلقه الحنابلة بالجامع الأموي، وتولى القضاء نحو ثلاثة أشهر من سنة تسع وتسعين وستمائة ثم عزل، وكان رجلا جيدا من أعيان الحنابلة وفضلائهم مات في تاسع وعشرين شهر ربيع الأول سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م ودفن بمقبرة الشيخ أبي عمر رحمه الله تعالى بعد أن عاش أربع وخمسين سنة ثم توفي في سنة.[٤]

كذلك درس بالمدرسة المذكورة الإمام الثقة الخير المعمر شمس الدين أبو المظفر يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن بن نجم بن الحنبلي الشيرازي الأصل الصالحي حدث عن أبيه وطائفة، ودرس بالمدرسة الصاحبية بالجبل وله خمس وستون سنة، وكان عبدا صالحا ومات بدمشق في شعبان في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.[٥] ثم درس

---

(١) النعيمي: المصدر نفسه ٢/ ٦٤-٦٥؛ الصفدي: المصدر السابق ٦/ ٤٥؛ ابن تغري بردي (يوسف بن عبد الله): المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ١/ ١٢٥، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين، تقديم دكتور: سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ إحسان عباس: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ ١/ ١٧٥-١٧٧، دار الغرب الإسلامي؛ بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٨م.

(٢) ابن تَيْمِيَّة: هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني الشيخ الإمام العلامة الفقيه المفسر الحافظ المحدث، شيخ الإسلام نادرة العصر، ذو التصانيف والذكاء، ولد بحران عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين، وتحول به أبوه إلى دمشق سنة سبع وستين، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. صار من أئمة النقد ومن علماء الأثر مع التدين والذكر والصيانة والنزاهة عن حطام هذه الدار، ثم أقبل على الفقه ودقائقه، وغاص على مباحثه. وأما أصول الدين ومعرفة أقوال الخوارج والروافض والمعتزلة والمبتدعة فكان لا يشق فيها غباره، مع ما كان عليه من الكرم الذي لم يشاهد مثله، والشجاعة المفرطة، والفراغ عن ملاذ النفس: من اللباس الجميل، والمأكل الطيب، والراحة الدنيوية. وصنف في فنون، ولعل مؤلفاته تبلغ ثلاثمائة مجلدة. وكان قوالاً بالحق، نهاءً عن المنكر، ذا سطوة وإقدام وعدم مداراة، وكان أبيض أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، جهوري الصوت، فصيح اللسان، سريع القراءة، توفي محبوساً في قلعة دمشق على مسألة الزيارة، وكانت جنازته عظيمة إلى الغاية، ودفن في مقابر الصوفية صلى عليه قاضي القضاة الشيخ علاء الدين القونوي. ابن شاكر (محمد بن شاكر): فوات الوفيات ١/ ٧٤- ٨٠، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٧٣م؛ ابن حجر (أحمد بن علي): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/ ١٦٨-١٨٧، تحقيق: مراقبة/ محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط ٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م؛ الزركلي: الأعلام ١/ ١٤٤.

(٣) ابن مفلح: المقصد الأرشد ٢/ ٤٥٩-٤٦٠.

(٤) النعيمي: المصدر السابق ٢ / ٢٩، ٦٦.

(٥) الذهبي: العبر ٤/ ١٥٦.

بها القاضي الإمام العالم العلامة الشيخ شمس الدين محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج الراميني المقدسي الصالحي الحنبلي صاحب كتاب الفروع. أفتى ودرس وناظر وصنف وأفاد وناب في الحكم عن حميه فشكرت سيرته وأحكامه، وكان ذا حظ من زهد وتعفف وصيانة وورع ودين متين. مات في شهر رجب سنة ثلاث وستين وسبعمائة بالصالحية عن إحدى وخمسين سنة.[١]

ثم درس بها شيخ الحنابلة الإمام العلامة الفقيه رئيس الحنابلة برهان الدين وتقي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج الأرمني وقيل الرّاميني الأصل المقدسي ثم الدمشقي، ولد سنة ٧٤٩/ ١٣٤٨م، وقيل سنة إحدى وخمسين، حفظ كتبا عديدة، وأخذ عن جماعة منهم والده، وجده، ودرس بدار الحديث الأشرفية،[٢] وبالصاحبية وغيرهما، وكان بارعاً عالماً بمذهبه وأفتى وجمع وشاع اسمه واشتهر ذكره، وصنف كتاب "فضل الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" وكتاب "الملائكة" وشرح "المقنع" "ومختصر ابن الحاجب" وتلف غالبها في فتنة تيمورلنك ٧٣٧-٨٠٨هـ/ ١٣٦٦-١٤٠٥م،[٣] وله "كتاب طبقات أصحاب الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه" احترق أغلبه، وانتهت إليه في آخر عمره مشيخة الحنابلة، وكان له ميعاد بمحراب الحنابلة بالجامع الأموي بكرة يوم السبت يسرد فيه على ما يقال نحو مجلد صغير، ويحضر مجلسه الفقهاء من كل مذهب. ثم ولي القضاء مستقلا في شهر رجب سنة إحدى وثمانمائة وتأخر بدمشق لما جاء تيمورلنك وخرج إليه ومعه جماعه؛ لأنه كان يحسن اللغتين: التركية، والفارسية، ولعلهم لذلك اختاروه للسفارة، وسعى في الصلح ثم رجع إلى دمشق وقرر مع أهلها أمر الصلح فلم يتم، وكثر تردده إلي تيمورلنك ليدفع عن المسلمين، فلم يجب سؤاله وضعف موقفه عند رجوعهم، وجرى له ولأهل دمشق منه أمور، وتفاقم الأمر، وأصابه المرض وتألم إلى أن توفي يوم الثلاثاء سابع عشرين شعبان سنة

---

(١) النعيمي: المصدر نفسه ٢/ ٦٦.

(٢) دار الحديث الأشرفية: بجوار باب القلعة الشرقي غربي العصرونية وشمالي القيمازية الحنفية، وقد أمر الملك الأشرف بعمل هذه الدار دار حديث في سنة ٦٢٨هـ فتمت في سنتين، وجعل شيخها الشيخ تقي الدين بن الصلاح، وقد كانت دارا للأمير صارم الدين قايماز بن عبد الله النجمي واقف القيمازية وله بها حمام فاشترى ذلك الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل وبناها دار حديث وأخرب الحمام وبناه سكنا للشيخ المدرس بها. وفي سنة ثلاثين وستمائة في ليلة النصف من شعبان فتحت دار الحديث الأشرفية وأملى بها الشيخ تقي الدين بن الصلاح الحديث ووقف عليها الملك الأشرف الأوقاف وجعل بها نعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسمع الملك الأشرف صحيح البخاري في هذه السنة على الزبيدي٠ابن كثير: البداية والنهاية ٦/ ٤٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٠؛ السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر): تاريخ الخلفاء ١/ ٣٢٦، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط ١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م؛ النعيمي: نفسه ١/ ١٥ومابعدها.

(٣) تيمورلنك كوركان بن أنس قتلغ وَقيل بل هُوَ تيمور بن سرتخنته بن زنكي بن سبنا بن طارم بن طغرل بن قليج بن سنقرر بن كنجك بن طوسبوقا بن ألتان خَان، ومعني لنك الْأَعْرَج، ومعني كوركان صهر الْملك. توفّي تيمور بآهنكران من شَرْقي سَمَرْقَنْد فِي ثَالِث عشر شعْبَان سنة ٨٠٨هـ، وَملك عَامَّة بِلَاد الْعرَاق وخراسان. وسمرقند والهند وديار بكر وبلاد الرّوم وحلب ودمشق وَخرب مدن الْعَالم وحرقها وَهدم بَغْدَاد وأزال نعم النَّاس وَكَانَ قَاطع طَرِيق. أول ظُهُوره سنة ثَلَاث وَسبعين وَسَبْعمائَة. المقريزي: السلوك ٦/ ١٦٨-١٦٩٠

٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م ودفن تحت رجلي والده بالروضة.[١] وكان العلامة والمؤرخ الشهير ابن حجر ٧٧٣-٨٥٢هـ = ١٣٧٢-١٤٤٩م قد لقيه وسمع منه القليل وأشار إلي أنه لم يخلف بعده في مذهبه ببلده مثله.[٢]

كذلك تولى التدريس بهذه المدرسة القاضي الإمام العالم المحدث تاج الدين أبو القاسم عبد الغفار بن محمد بن عبد الكافي بن عوض بن سنان بن عبد الله السعدي الفقيه الشافعي ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م، سمع الكثير، وخرج لنفسه معجما في ثلاثة مجلدات، وقرأ بنفسه الكثير، وكتب الخط الجيد ،وكان متقنا عارفا بهذا يقال: أنه كتب بخطه نحوا من خمسمائة مجلد وخرج لشيوخ، وقد كان شافعيا مفننا ومع هذا ناب في وقت عن القاضي الحنبلي وولي مشيخة الحديث بالمدرسة الصاحبية، وتوفي رحمه الله تعالى في مصر في مستهل ربيع الأول عن اثنتين وثمانين سنة.[٣]

أما بخصوص الأوقاف التي أوقفتها ربيعة خاتون للصرف علي هذه المدرسة فيقول النعيمي في هذا الصدد: "الذي علم الآن من وقفها غالب قرية جُبَّة عَسَّال،[٤] والبستان الذي تحت المدرسة والطاحون، وحاكورة[٥] غالب تلك الحارة جوارها".[٦]

هذا فيما يتعلق بمدرسة ربيعة خاتون، وأبرز العلماء الذين تولوا التدريس فيها، والأوقاف التي أوقفتها عليها ربيعة خاتون التي التحق بخدمتها الشاعر الدمشقي مُحَمَّد بن غَازِي الْموصِلِي المعروف بالفقاعي[٧] شربدار (الساقي) السِّت ربيعَة خاتون أُخْت الْعَادِل لَهُ شعر توفّي سنة ٦٢٩هـ = ١٢٣٢م.[٨]

---

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ٧/ ٧٣٠، ها ٢، المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/ ٢٣٩؛ النعيمي: المصدر السابق ٢/ ٣٧، ٦٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب ٩/ ٤٠.

(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر ٢/ ١٥٠-١٥١، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

(٣) الذهبي: العبر ٤/ ٩٢، النعيمي: المصدر نفسه ٢/ ٦٧.

(٤) جُبَّة عَسَّال: بالضم ثم التشديد، بلفظ الجبّة التي تلبس، والجبّة في اللغة ما دخل فيه الريح من السنان والجبّة أيضا في شعر كثيّر: بأجمل منها، وإن أدبرت ... فأرخ بجبّة يقرو حميلا، وتعرف بجبة عسيل: ناحية بين دمشق وبعلبك تشتمل على عدّة قرى. ياقوت: معجم البلدان ٢/ ١٠٨.

(٥) حاكُورة، وجمعها حَوَاكير : بساتين مزروعة بالريحان الشامي (الرند) في غوطة دمشق. دوزي: تكملة المعاجم العربية ٣/ ٢٥٧.

(٦) الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٦٧.

(٧) الفقاعي: نسبته إلى (الفُقّاع) وهو شراب يتخذ من الشعير تعلوه فقاقيع من الزبد. ابن فارس (أحمد بن فارس): معجم مقاييس اللغة ٤/ ٤/ ٤٤٥، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

(٨) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٥/ ٣٧٥، الصفدي: الوافي بالوفيات ٤/ ٢١٦؛ النعيمي: المصدر السابق ٢/ ٦٧؛ الزركلي: المرجع السابق السابق ٦/ ٣٢٤.

وفاة ربيعة خاتون

قدمت ربيعة خاتون إلى مدينة دمشق بعد وفاة زوجها مظفر الدين صاحب إربل وأقامت بها في دار العقيقي المشار إليها حتى وافتها المنية في شهر شعبان سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م عن عمر ناهز الثمانين، ودفنت في مدرستها التي شيدتها، وهو ما أشار إليه ابن خلكان بقوله: "وأما زوجته (مظفر الدين) ربيعة خاتون بنت أيوب فإنها توفيت في شعبان سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وغالب ظني أنها جاوزت ثمانين سنة، ودفنت في مدرستها الموقوفة على الحنابلة بسفح قاسيون، وكانت وفاتها بدمشق".(١) وأشار أبو الفداء إلي أنها ماتت في دار العقيقي فقال: "وفي هذه السنة توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب، أخت السلطان صلاح الدين بدمشق، بدار العقيقي، وكانت قد جاوزت ثمانين سنة".(٢) ويؤكد النويري ذلك فيقول: "وفيها توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب، أخت الملك الناصر والملك العادل، وأخت ست الشام. وكانت وفاتها بدمشق بدار العقيقى – وقد قاربت ثمانين سنة".(٣)

أما الذهبي فقد أشار إلى أن دار العقيقي التي توفيت فيها ربيعة خاتون فقد تحولت بعد ذلك إلي مدرسة فقال: "وتُوُفّيَت بدمشق فِي دار العقيقيّ الّتي صُيِّرَت المدرسة الظّاهريّة.(٤) ودُفنت بمدرستها تحت القبو".(٥) وقد أشار ابن ابن كثير إلى أن ربيعة خاتون عاشت فترة طويلة، وأنها كانت آخر من بقي علي قيد الحياة من أولاد نجم الدين أيوب فيقول: "وَقَدْ تَأَخَّرَتْ مُدَّتُهَا فَتُوُفِّيَتْ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَكَانَتْ آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَوْلَادِ أَيُّوبَ لِصُلْبِهِ".(٦) ويقول أيضا في موضع آخر: "ثم قدمت دمشق فسكنت بدار الْعَقِيقِيِّ حَتَّى كَانَتْ وَفَاتُهَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَقَدْ جَاوَزَتِ الثَّمَانِينَ، وَدُفِنَتْ بِقَاسِيُونَ".(٧) ثم جاء النعيمي وقال أيضا بخصوص هذا الموضوع: "هي ربيعة خاتون بنت أيوب عمرت إلى أن توفيت بدمشق بدار أبيها وهي دار العقيقي في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وستمائة وهي آخر أولاد أيوب لصلبه موتا".(٨)

---

(١) وفيات الأعيان ٤/١٢٠-١٢١.

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٧٤.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٩/ ٣١٧.

(٤) المدرسة الظّاهريّة: تقع هذه المدرسة بين بابي الفرج والفراديس بدمشق، مقابل المدرسة العادلية الكبري، بنيت مكان دار أحمد بن الحسين بن أحمد بن علي العقيقي، وهي كانت دار أيوب والد صلاح الدين. وَفِي يَوْمِ السَّبْتِ تَاسِعِ جُمَادَى الْأُولَى سنة ٦٧٦هـ شُرِعَ فِي بِنَاءِ تلك الدَّارِ لِتُجْعَلَ مَدْرَسَةً وَتُرْبَةً لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ، وهي المجاورة لحمام الْعَقِيقِيِّ، وَأُسِّسَ أَسَاسُ التُّرْبَةِ فِي خَامِسِ جُمَادَى الْآخِرَةِ وَأُسِّسَتِ الْمَدْرَسَةُ أَيْضًا. وقد اشترى الملك الظاهر بيبرس هذه الدار وبناها مدرسة ودار حديث وتربة وذلك في حدود سنة سبعين وستمائة. ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٧. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢٦٣- ٢٦٤.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٧/ ١٦٢، تاريخ ابن الوردي٢/ ١٧١؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٢٧/ ٣٢٩؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ١٤/ ٦٧؛ اليافعي: مرآة الجنان ٤/ ٨٤.

(٦) البداية والنهاية ١٢/٣١٧.

(٧) البداية والنهاية ١٣/١٧٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ٣٥٣.

(٨) الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٩١، ابن العماد: شذرات الذهب ٧/ ٣٧٩.

والحقيقة أن هناك إجماع على أن ربيعة خاتون توفيت في شهر شعبان سنة ٦٤٣هـ، بيد أن النعيمي خالف من سبقوه كما رأينا وأشار إلى أنها توفيت في رمضان من السنة المذكورة.[١] أما محمَّد كُرْد عَلي ففي إطار حديثه عن مدارس الحنابلة بدمشق فقد أشار إلى أنها دفنت في فناء مدرستها سنة ٦٥٣ هـ.[٢] ولكن الصاحبة ربيعة خاتون ماتت كما تقدم سنة ٦٤٣هـ وليس كما ذكر وإنما التي توفيت في التاريخ المشار إليه هي العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي كما أشرت سابقا. كذلك ذهب بعض المؤرخين إلى أنها تخطت الثمانين من عمرها، في حين ذهب بعضهم إلي أنها لم تتجاوزها.

هذا وقد تم تطوير وتوسيع تربة ربيعة خاتون بعد موتها وصارت جامعا في زمن النعيمي الذي عاش في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي وهو ما رصده بقوله: "وفي زماننا وسعت تربتها وصارت جامعا وأقيمت فيه الجمعة وغيرها".[٣]

---

(١) النعيمي: المصدر السابق ١ /٣٩١، عبد القادر بن بدران: منادمة الأطلال ١/ ٢٣٨.

(٢) خطط الشام ٦/ ٩٧.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٩٠.

خاتمة البحث

في نهاية هذا البحث يمكن إجمال ما توصلت إليه من نتائج فيما يلي:

- إن كلمة الصاحبة مشتقة من الفعل صحب، والصاحبة تأنيث الصاحب، وجمعها صواحب وصواحبات وصاحبات كما ورد في حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم في مرض موته حينما أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، ويقال للنساء: صواحب يوسف من باب الشكوى منهن وذم أخلاقهن. أما معني كلمة الصاحبة لغويا فهو الزوجة كما ورد في القرآن الكريم، ومن خلال حديث الصحابي طلحة بن عبيد الله مع زوجته سعدى المرية. أما كلمة خاتون فمعناه سيدة، أو المرأة الشريفة الأصل.

- وفيما يتعلق بنسب ربيعة خاتون فهي بنت الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي العادلي، ولا يعرف لها وللأسرة الأيوبية جد أكثر من هذا، وما زاد عن جدهم شاذي نفاه بنو أيوب أنفسهم. وكان لربيعة خاتون أخوة أشقاء هم: ست الشام زمرد خاتون وكانت أكبر منها، والمعظم شمس الدين تورانشاه وكان أسن من صلاح الدين الأيوبي، وسيف الإسلام طغتكين صاحب اليمن. أما أخوتها غير الأشقاء فهم: صاحب بعلبك وأكبر إخوته شاهنشاه بن أيوب، وتاج الملوك بوري الأخ الأصغر لصلاح الدين، وصلاح الدين، والملك العادل.

- أما عن طبيعة العلاقة بين ربيعة خاتون وأفراد أسرتها، فقد حظيت وتمتعت باحترام وتقدير كبيرين ليس فقط من جميع إخوتها بل من أولادهم وأحفادهم أيضا، فقد كانوا على اتصال دائم بها، ويختلفون إليها في دارها للاطمئنان عليها. وقد عاصرت ربيعة خاتون من محارمها حوالي خمسين رجلا كانوا يحكمون رقعة شاسعة سواء في بلاد الجزيرة، أو الشام، أو مصر، أو الحجاز، أو اليمن.

- أقدم صلاح الدين الأيوبي علي تزويج أخته ربيعة خاتون من الأمير سعد الدين مسعود، لما كان يتمتع به من شهامة وشجاعة وأخلاق نبيلة، كما أنه من بيت عريق فوالده الأمير معين الدين أنر كان مقدم جيوش نور الدين محمود، هذا فضلا عن صلاح الدين قد تزوج من أخته الخاتون عصمة الدين بعد وفاة زوجها الشهيد نور الدين محمود، وكانت ذات منزلة عالية عنده، فأراد أن يحث نوعا من تبادل المصاهرة مع هذا البيت الكبير، ومن هنا كان حرص صلاح الدين على إتمام هذا الزواج، كما يمكن أن نضيف لذلك سببا آخر وهو أن الأمير سعد الدين مسعود نفسه كان بمثابة أبو صلاح الدين بعد أبيه.

- تزوجت ربيعة خاتون من الأمير سعد الدين مسعود بعد أن تزوج صلاح الدين من أخته عصمة خاتون في سنة ٥٧٢هـ، ولذلك فمن المرجح أن صلاح الدين زوج أخته من الأمير سعد الدين في نفس عام زواجه من عصمة الدين. وإن كان قد ذهب بعضهم إلي أن صلاح الدين زوج أخته أولا للأمير سعد الدين ثم تزوج أخته بعد ذلك. وقد استمر هذا الزواج من سنة ٥٧٢هـ إلي وفاة سعد الدين في سنة ٥٨١هـ نتيجة جرح أصابه وهو علي حصار مدينة ميافارقين.

- ثم زوج صلاح الدين أخته ربيعة مرة ثانية للأمير مظفر الدين كوكبري صاحب مدينة إربل الذي اتصل بصلاح الدين وخدمه وحظي عنده وأظهر شجاعة فائقة خلال معارك صلاح الدين ضد الصليبيين بالشام، فأقطعه إربل بعد وفاة أخيه زين الدين يوسف وزاد في إقطاعه بعض البلدان الأخرى.

- هذا وقد تزوج مظفر الدين من ربيعة خاتون في سنة ٥٨٦هـ حينما كان مظفر الدين يحارب مع أخيها صلاح الدين حول أسوار عكا ضد الفرنجة. وقد استمرت هذه الزيجة فترة طويلة إذا ما قورنت بزواجها الأول فقد تجاوزت الأربعين سنة أي من سنة ٥٨٦هـ وهو تاريخ زواجهما وحتى وفاة مظفر الدين سنة ٦٣٠هـ.

- اتصف مظفر الدين زوج ربيعة خاتون بأنه كان من الشخصيات التي كانت تحب فعل الخير، والعطف علي الفقراء والمحتاجين ، وإنشاء الدور للزمني، والمرضى، والأرامل، والأيتام، والملاقيط، فضلا عن تشييد المدارس، والمستشفيات، كما كان يقيم سنويا حفلا ضخما بمناسبة الاحتفاء بالمولد النبوي علي صاحبه أفضل الصلاة والسلام.

- أثمر هذا الزواج إنجاب بنت زوجها والدها مظفر الدين لعماد الدين زنكي بن أرسلان شاه صاحب قلعتي الشوش والعقر الحميدية. وقد وقف بجانب صهره في صراعه ضد بدر الدين لؤلؤ الوصي على أرسلان شاه بن الملك المسعود ابن أخي عماد الدين زنكي حينما استولي الأخير على بعض البلاد التابعة لأبن أخيه لولا تدخل الملك الأشرف موسى بن العادل وإجباره مظفر الدين أن يرد البلاد التي استولى عليها لصاحبها أرسلان شاه.

- كانت ربيعة خاتون تعتب وتلوم زوجها مظفر الدين حينما كان يرتدي ملابس بسيطة رخيصة لا تتناسب مع مكانته وثرائه، بيد أنه لم يكن يعيرها اهتماما، وأوضح لها أن همه وشغله الشاغل وسر سعادته في هذه الحياة الفانية هو إسعاد الفقراء والمحتاجين وإدخال السرور عليهم وليس في ارتداء الملابس الثمينة.

- خلال زواج ربيعة من مظفر الدين خرجت حاجة إلى مكة سنة ٦٠٨هـ، فأرسل إليها ابن أخيها الظاهر غازي حاكم حلب أحد العلماء ليرافقها ويعلمها المناسك. وخلال الموسم المذكور حصلت فتنة بمكة إثر محاولة اغتيال فاشلة لأميرها الشريف قتادة علي يد بعض الحشيشية الذين قدموا بصحبة أم جلال الدين صاحب قلعة ألموت التي وفدت مع الحاج العراقي، فقام الشريف قتادة بنهب الحجاج العراقيين وقتل بعضهم ردا علي ذلك، فاستغاث زعيم الحاج العراقي بربيعة خاتون، فأرسلت إلى قتادة وهددته إن لم يوقف أعمال السلب والنهب، وتوعدته بما لا قبل له به فكف عن ذلك، وهكذا أبانت ربيعة في هذا الموقف عن شجاعة وجرأة لا مثيل لها.

- حاولت ربيعة خاتون مثلها مثل باقي أفراد أسرتها العمل علي محو المذهب الشيعي وتكريس وإحلال المذهب السني مكانه. ومن هذا المنطلق شيدت المدرسة الصاحبية وقيل الصاحبة بدمشق. وصاحب الفضل في توجيه ربيعة لإنشاء هذه المدرسة هي العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي التي أشارت عليها بتشييد المدرسة ووقفها علي الحنابلة وأبيها الناصح الحنبلي ففعلت، لأنها كانت تحبها وتحترمها وتثق فيها.

- شيدت المدرسة بجبل الصالحية بسفح قاسيون من الجهة الشرقية، وقد بدء التدريس بها في سنة ٦٢٨هـ، وحضرت ربيعة حفل الافتتاح من وراء ستار، وسمعت الشيخ الناصح الحنبلي وهو يلقي أول دروسه بها. وقد تولى التدريس بعده في هذه المدرسة كوكبة من ألمع العلماء منذ إنشائها في الربع الثاني من القرن السابع الهجري وما بعده منهم علي سبيل المثال وليس الحصر: سيف الدين يحي بن الناصح الحنبلي، وابن الواسطي الصالحي الحنبلي، والفقيه محمد بن عبد القوي وغيرهم من جهابذة العلماء والفقهاء والمحدثين الأعلام أصحاب التصانيف في فروع العلم المختلفة.

– وقد أوقفت ربيعة خاتون عدة أوقاف للصرف منها علي هذه المؤسسة التعليمية منها معظم قرية جبة عسال ، وبستان تحت المدرسة ، وطاحون ، فضلا عن مجموعة بساتين موجودة بالحارة التي فيها المدرسة.

– جاءت ربيعة خاتون إلي دمشق بعد وفاة زوجها مظفر الدين صاحب إربل سنة ٦٣٠هـ، وسكنت بدار العقيقي– التي كانت لأبيها – ثم داهما المرض فتوفيت بها سنة ٦٤٣هـ، ونقلت إلي مدرستها فدفنت بفنائها ،وتحولت دار العقيقي إلي المدرسة الظاهرية نسبة إلي السلطان المملوكي الظاهر بيبرس ٠وقد ماتت بعد أن شارفت علي الثمانين ، وقيل: تجاوزتها ، ولكن من المؤكد أنها كانت حين وفاتها آخر من بقي من أولاد نجم الدين أيوب بعد أن عمرت فترة طويلة ٠

– هناك إجماع على أن ربيعة خاتون توفيت في شعبان سنة ٦٤٣هـ ، بيد أن النعيمي خالف من سبقوه وأشار إلي أنها ماتت في شهر رمضان من السنة المذكورة ٠أما صاحب خطط الشام محمد كرد علي ذكر عند حديثه عن المدرسة الصاحبية أنها دفنت بفناء مدرستها سنة ٦٥٣هـ، فهل يقصد أنها نقلت بعد وفاتها سنة ٦٤٣هـ في التاريخ المشار إليه إلي مدرستها؟ أم يقصد أنها توفيت في هذا التاريخ؟ وفي هذه الحالة يكون قد خالف من سبقوه من المؤرخين الذين أجمعوا على وفاتها في سنة ٦٤٣هـ، ويكون بذلك قد خلط بين تاريخ وفاة ربيعة خاتون وبين وفاة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي التي ماتت بالفعل سنة ٦٥٣هـ كما ذُكر في المصادر التاريخية المختلفة.

محمد عبد الستار محمد البنا

قائمة المصادر والمراجع

* إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، دار الدعوة.

* ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد ٦٣٠هـ = ١٢٣٣م) :

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

- الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

- اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت.

* إحسان عباس (١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م): شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٨م.

* أحمد مختار عبد الحميد عمر (١٧ مارس ١٩٣٣م -٤ أبريل ٢٠٠٣م): معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

* الأزهري (محمد بن أحمد ٣٧٠هـ = ٩٨١م): تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

* الإصطخري (إبراهيم بن محمد ٣٤٦هـ = ٩٥٧ م): المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م.

* ابن بدران (عبد القادر بن أحمد ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م): منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥م.

* ابن بطوطة (محمد بن عبد الله ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ.

* البكري (عبد الله بن عبد العزيز ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤م): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.

* ابن تغري بردي (يوسف بن عبد الله ٨٧٤ هـ = ١٤٧٠م):

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

* ابن جبير (محمد بن أحمد ٦١٤هـ = ١٢١٧م): رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

* الجوهري (إسماعيل بن حماد ٣٩٣هـ = ١٠٠٣م): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

* الحازمي (محمد بن موسى ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) : الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة ، المحقق: حمد بن محمد الجاسر ، الناشر: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر عام النشر: ١٤١٥ هـ .

* ابن حجر (أحمد بن علي ٨٥٢هـ= ١٤٤٨م) :

- تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: مراقبة: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط ٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

- إنباء الغمر بأبناء العمر، المحقق: د حسن حبشي، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، عام النشر:١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.

* الحِميرى (محمد بن عبد الله ٩٠٠هـ = ١٤٩٥م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، مطابع دار السراج، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

* ابن حنبل (أحمد بن محمد ٢٤١هـ = ٨٥٥م): مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

* الخطابي (حمد بن محمد ٣٨٨هـ = ٩٩٨م): غريب الحديث، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

* ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

* ابن خلكان (أحمد بن محمد ٦٨١هـ = ١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٠٠م.

* دُوزِي (رينهارت بيتر آن ١٣٠٠هـ = ١٨٨٣م): تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمَّد سَليم النعَيمي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى، من ١٩٧٩-٢٠٠٠م.

* الذهبي (محمد بن أحمد ٧٤٨هـ = ١٣٤٧م):

- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، تحقيق: محمد عوامة أحمد محمد نمر الخطيب، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علوم القرآن، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- تاريخ الإسلام تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلام، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

- سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

- تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

* الزمخشري (محمود بن عمرو ٥٣٨هـ = ١١٤٣م): أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

* السبكي (عبد الوهاب بن تقي الدين ٧٧١هـ = ١٣٧٠م): معجم الشيوخ، تخريج: شمس الدين أبي عبد الله ابن سعد الصالحي الحنبلي، تحقيق: بشار عواد، رائد يوسف العنبكي، مصطفى إسماعيل الأعظمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤.

* سعدي أبو حبيب: القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

* السمعاني (عبد الكريم بن محمد ٥٦٢هـ = ١١٦٧م): الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره ، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢م.

* ابن سيده (علي بن إسماعيل ٤٥٨هـ = ١٠٦٦م): المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

* السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر ٩١١هـ = ١٥٠٥م):

- تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

- الحاوي للفتاوى، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

* ابن شاكر (محمد بن شاكر ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م): فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.

* أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل ٦٦٥ هـ = ١٢٦٧م):

- عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م،

- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل علي الروضتين، وضع حواشيه وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

* ابن شداد (يوسف بن رافع ٦٣٢هـ = ١٢٣٤م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي) تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

* الصالحي الشامي (محمد بن يوسف ٩٤٢هـ = ١٥٣٦م): سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

* الصفدي (خليل بن أيبك ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

* عاتق بن غيث: معجم الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

* ابن عبد الحق (عبد المؤمن بن عبد الحق ٧٣٩هـ = ١٣٣٨م): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

* القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (المتوفى: ق ١٢هـ): دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

* ابن العديم (عمر بن أحمد ٦٦٠هـ = ١٢٦٢م): زبدة الحلب في تاريخ حلب، وضع حواشيه: خليل المنصور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

* ابن عساكر (علي بن الحسن ٥٧١هـ = ١١٧٦م): تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

* العصامي (عبد الملك بن حسين ١١١١هـ = ١٦٩٩م): سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

* علاء الدين مغلطاي (مغلطاي بن قليج ٧٦٢هـ = ١٣٦١م): الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفا، تحقيق: محمد نظام الدين الفُتَيّح، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

* ابن العماد (عبد الحي بن أحمد ١٠٨٩هـ = ١٦٧٩م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه: محمود الأرناؤوط خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

* الغِبْرِيني (أحمد بن أحمد ٧٠٤هـ = ١٣٠٤م): عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجايَة، حققه وعلق عليه: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

* ابن فارس (أحمد بن فارس ٣٩٥ هـ = ١٠٠٤م): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر عام النشر: ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

* الفاسي (محمد بن أحمد ٨٣٢ هـ = ١٤٢٩م): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

* أبو الفداء (إسماعيل بن علي ٧٣٢هـ = ١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى.

* ابن فضل الله العمري (أحمد بن يحيى ٧٤٩هـ = ١٣٤٩م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

* الفيومي (أحمد بن محمد – نحو ٧٧٠هـ = – نحو ١٣٦٨م): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت.

* القزويني (زكريا بن محمد ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.

* ابن القلانسي (حمزة بن أسد ٥٥٥هـ = ١١٦٠م): تاريخ دمشق، تحقيق : سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

* كامل الغزي (كامل بن حسين ١٣٥١هـ = ١٩٣٣م): نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

* ابن كثير (إسماعيل بن عمر ٧٧٤هـ = ١٣٧٢م): البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

*الأَمير محمَّد عَلي (محمد بن توفيق ١٣٧٤هـ = ١٩٥٥م): الرحلة الشامية، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

* محمَّد كُرْد عَلي (١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م): خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

* محمد بن محمد حسن شُرَّاب: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

* مرتضى الزَّبيدي (محمّد بن محمّد ١٢٠٥هـ = ١٧٩٠م): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

* ابن المستوفي الإربلي (المبارك بن أحمد ٦٣٧هـ = ١٢٣٩م): تاريخ إربل، تحقيق: سامي بن سيد خماس الصقار، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م.

* المُطَرِّزِيّ (ناصر بن عبد السيد ٦١٠هـ = ١٢١٣م): المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي، الطبعة (بدون طبعة وبدون تاريخ).

* ابن مفلح (إبراهيم بن محمد ٨٨٤ هـ = ١٤٧٩م): المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

* المقريزي (أحمد بن علي ٨٤٥هـ = ١٤٤١م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

* ابن مندة (عبد الرحمن بن محمد ٤٧٠هـ = ١٠٧٨م): المستَخرجُ من كُتب النَّاس للتَّذكرة والمستطرف من أحوال الرِّجال للمعرفة، تحقيق: عامر حسن صبري التَّميميُّ، وزارة العدل والشئون الإسلامية البحرين، إدارة الشئون الدينية.

* الملك المنصور (محمد بن عمر ٦١٧هـ = ١٢٢٠م): مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة،

* ابن منظور (محمد بن مكرم ٧١١هـ = ١٣١١م): لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

* المهلبي (الحسن بن أحمد ٣٨٠هـ = ٩٩٠م): الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، جمعه وعلق عليه ووضع حواشيه: تيسير خلف.

* ابن ناصر الدين الدمشقي (محمد بن عبد الله ٨٤٢ هـ = ١٤٣٨م): توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

* ناظم رشيد: المدائح النبوية في أدب القرنين السادس والسابع للهجرة، دار آفاق عربية، بغداد، ط ١، ١٤٢٣هـ.

* النعيمي (عبد القادر بن محمد ٩٢٧هـ = ١٥٢١م): الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية.

* النويري (أحمد بن عبد الوهاب ٧٣٣هـ = ١٣٣٣م): نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

* ابن الوردي (عمر بن مظفر ٧٤٩ هـ = ١٣٤٩م): تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

* اليافعي (عبد الله بن أسعد ٧٦٨ هـ = ١٣٦٧م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

* ياقوت الحموي (ياقوت بن عبد الله ٦٢٦هـ = ١٢٢٩م):

- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

- الخزل والدأل بين الدور والدارات والديرة ، د. ت.

* اليعقوبي (أحمد بن إسحاق - بعد ٢٩٢هـ = - بعد ٩٠٥م): البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

* اليونيني (موسى بن محمد ٧٢٦ هـ = ١٣٢٦م): ذيل مرآة الزمان، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.